الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضي الله عنه

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة 41هـ، فأخذ يعمل بكل ما أوتي من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربوع العالم الإسلامي ، فانتهج سياسة داخلية، تقوم على عدة أمور:

المبحث الأول

الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم

فقد خطب مرة في أهل الحجاز بعد توليه الخلافة، فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله، فقال: وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم! رحمة الله ورضوان الله عليهم، غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة. فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني بعضه. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، أستغفر الله لي ولكم[1].

وبمثل هذه السيرة صار خليفة المسلمين وانقاد له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة، كان رضي الله عنه يهتم بغزو القلوب والإحسان إليها، مع الوعي والحذر الشديدين أن لا تنتقض الأمة عليه، لقد كان يبذل المال بلا حساب لكبار الشخصيات القيادية في المجتمع ويعتبر أن عليها مسؤوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة، فلا بد أن تكون

(1) البداية والنهاية (11/ 432).

مليئة لسد الخلّة، وتلبي الحاجة، وتحلّ المعضلة، ولعل أشراف بني هاشم كانوا في هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداقاً عليهم بالمال، ولا بدع فهم لايزالون في عرف الناس القيادات الشعبية التي تمثل جماهير الأمة، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمراء، وهذه القيادات لم تشارك في الحكم ولم تكن لها رغبة في ذلك[1].

أولاً: العلاقة بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما بعد الصلح:

كان الحسن بن علي يقدمُ على معاوية في خلافته، فقدم عليه ذات مرة فقال له معاوية: لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ولا أجيز بها أحداً بعدك، فأعطاه أربع مائة ألف فقبلها[2]، وجاء في رواية: . . . أن الحسن بن علي كان يفد كل سنة إلى معاوية فيصله بمائة ألف درهم، فقعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشيء فدعا بدواة ليكتب إليه فأغفى قبل أن يكتب فرأى النبي ﷺ في منامه كأنه يقول: «**يا حسن أتكتب لمخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟**» قال: فما أصنع يا رسول الله وقد كثر ديني؟ قال: «**قل اللّهم إني أسألك من كل أمر ضعفت عنه قوتي وحيلتي ولم تنته إليه رغبتي، ولم يخطر ببالي ولم يبلغه أملي، ولم يجر على لساني من اليقين الذي أعطيته أحداً من المخلوقين الأولين والمهاجرين والآخرين إلا أخصصتني يا أرحم الراحمين**». قال الحسن: فانتبهت وقد حفظت الدعاء، فكنت أدعو به فلم يلبث معاوية أن ذكرني فقيل له: لم يقدم السنة، فأمر له بمائتين ألف درهم[3].

وجاء في رواية: بأن الدعاء الذي علمه رسول الله للحسن في المنام هو: «**اللهم اقذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي عمّن سواك لا أرجو أحداً غيرك، اللّهم وما ضعفت عنه قوتي وقصر عنه عملي ولم تنته إليه رغبتي، ولم تبلغه مسألتي ولم يجر على لساني مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصّني به يا رب العالمين**» قال: فوالله ما ألححت به أسبوعاً حتى بعث إليّ معاوية بألف ألف وخمسمئة ألف، فقلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يخيّب من دعاه، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال: «**يا حسن كيف أنت**»؟ فقلت: بخير يا رسول الله، وحدثته حديثي، فقال: «**يا بُني هكذا من رجا الخالق ولم يرج المخلوق**»[4].
وروى الزهري: . . . لما قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجاء الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية فقال له معاوية: لو لم يكن لك فضل على يزيد إلا أن أمك امرأة من قريش، وأمه امرأة من كلب لكان لك عليه فضل، فكيف وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ[5].

---

(1) معاوية بن أبي سفيان للغضبان، ص: 314.
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 269).
(3) تاريخ دمشق (14/ 8).
(4) المصدر نفسه (14/ 8).
(5) الشريعة للآجري (5/ 2470) إسناده حسن.

ثانياً: صلات معاوية للحسن وابن الزبير ﷺ:

عن جعفر بن محمد عن أبيه: أن الحسن والحسين ﷺ كانا يقبلان جوائز معاوية ﷺ [1]، وكان يرسل للحسن والحسين، فقد أمر معاوية مرّة للحسن بن علي بمائة ألف فذهب بها إليه فقال لمن حوله: من أخذ شيئاً فهو له، وأمر للحسين بن علي بمائة ألف، فذهب بها إليه وعنده عشرة فقسمها عليهم عشرة آلاف، عشرة آلاف، وأمر لعبد الله بمائة ألف[2].

وكان معاوية ﷺ إذا لقي الحسن بن علي ﷺ قال: مرحباً بابن رسول الله وأهلاً، ويأمر له بثلاثمائة ألف، ويلقى ابن الزبير ﷺ فيقول: مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواريه، ويأمر له بمائة ألف[3]، وقد أشاد ابن الزبير بذكر معاوية بعد وفاته، فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: صلى يوماً عبد الله بن الزبير، فوجم بعد الصلاة ساعة، فقال الناس: لقد حدث نفسه ثم التفت إلينا فقال: لا يبعدن ابن هند، إن كانت فيه لمخارج لا نجدها في أحد بعده أبداً، والله إن كنا لنفرقه - أي نخوفه - وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإنا كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متعنا به ما دام في هذا حجر - وأشار إلى أبي قبيس[4] - وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر في عهد عبد الملك بن مروان[5].

ثالثاً: عبد الله بن عباس ﷺ مع معاوية:

وكان معاوية يحترمه ويقدره وكان يفد على معاوية، فيكرمه ويقرّبه ويحترمه ويعظّمه، وكان يلقي عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن علي اتفق كون ابن عباس عند معاوية فعزّاه فيه بأحسن تعزية، وردّ عليه ابن عباس ردًّا حسناً[6]، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس وعزّاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس[7].

أما تعزية معاوية ﷺ وإجازته لابن عباس. فكما رواها قتادة: ثم قال لابن عباس: لا يسوؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي، فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزنني الله ولا يسوءني ما أبقى الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم وعروضاً وأشياء وقال: خذها فاقسمها في أهلك[8].

---

(1) الشريعة، ص: 2470 إسناده حسن.
(2) تاريخ دمشق (62/ 133).
(3) تاريخ دمشق (62/ 133).
(4) عيون الأخبار (1/ 11، 12).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 115.
(6) البداية والنهاية (11/ 642).
(7) المصدر نفسه (11/ 642).
(8) البداية والنهاية (11/ 446).

وكان ابن عباس ﷺ من سادات المجتمع الإسلامي وقائد من قاداتها الكبار، وكان معاوية ﷺ يعرف مكانته الاجتماعية والعلمية، فابن عباس كان بمثابة المستشار للشؤون العلمية للخليفة، وقد كان معاوية ﷺ يعترف بفضل بني هاشم على بني أمية، فقد قيل له: أيكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرافاً، وكانوا أشرف واحداً، لم يكن في عبد مناف مثل هاشم، فلمّا هلك كنا أكثر عدداً، وأكثر أشرافاً وكان فيهم عبد المطلب، ولم يكن فينا مثلهم، فصرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً، ولم يكن فينا واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى جاء شيء لم يسمع الأوَّلون بمثله، ولا يسمع الآخرون بمثله، محمد ﷺ [1]. وكان معاوية ﷺ يحذر بني أمية من الإساءة إلى آل علي بن أبي طالب قائلاً: إن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى. وكان يطلب من خلصاء علي ﷺ، وصفه وسرد روائع خصاله وأعماله[2].

رابعاً: هل عمّم معاوية سب أمير المؤمنين علي على منابر الدولة الأموية؟

تذكر كتب التاريخ أن الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون علياً، وهذا الأثر الذي ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا علي بن محمد، عن لوط بن يحيى، قال: كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون علياً ﷺ، فلما ولي هو - عمر ابن عبد العزيز - أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعي:

ولِّيتَ فلم تشتم علياً ولم تُخِفْ ... بريئاً ولم تَتْبَع مقالةَ مُجْرِمِ
تكلَّمْتَ بالحقِّ المبينِ وإنَّما ... بيانُ آياتُ الهُدَى بالتَّكَلُّمِ
فصدَّقت معروفَ الذي قلت بالذي ... فعلتَ فأضحى راضياً كلُّ مُسْلِمِ[3]

فهذا الأثر واهٍ، فعلي بن محمد هو المدائني فيه ضعف، وشيخه لوط بن يحيى، واهٍ بمرة، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطني: أخباري ضعيف، ووصفه في الميزان: أخباري تالف لا يوثق به[4]، وعامة روايته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل[5].

وقد اتهم الشيعة معاوية ﷺ بحمل الناس على سب علي ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذي يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التي لا

(1) البداية والنهاية (11/ 446).
(2) الدور السياسي للصفوة، ص: 172.
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 147).
(4) الميزان (3/ 419).
(5) دفاعاً عن السلفية، ص: 187.

مجال لمناقشتها، ولم يثبت قط في رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري، واليعقوبي، وأبي الفرج الأصفهاني، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[1]، من احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبني أمية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً، وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بني العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بني أمية في نظر الجمهور الإسلامي، وقد كتب ذلك المسعودي في مروج الذهب وغيره من كتَّاب الإماميَّة، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة، ولا يوجد فيها رواية صحيحة صريحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية ﷺ بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله في الدين، وكان محمود السيرة في الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[2]. وقد ثبت هذا في حق معاوية ـ ﷺ ـ. كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن علي ﷺ على المنابر وهو من هو في الفضل، ومن علم سيرة معاوية ﷺ في الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية ﷺ في الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[3]، وقد فصلّنا في صفة الحلم في شخصية معاوية فيما مضى.

وأما ما استدل به الإماميَّة على تلك الفرية من صحيح مسلم فليس ما يدل على زعمهم، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحب إليّ من حمر النعم[4].

قال النووي: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعداً بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب. كأنه يقول: هل امتنعت تورعاً أو خوفاً، أو غير ذلك، فإن كان تورعاً وإجلالاً له عن السب، فأنت مصيب محسن، ولعل سعد ﷺ وقد كان في طائفة يسبون فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار أن ينكر عليهم، فسأله هذا السؤال: قالوا: ويحتمل تأويلاً

(1) الحسن، والحسين، محمد رضا، ص: 18، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب.
(2) الانتصار للصحب والآل، ص: 367 للرحيلي.
(3) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب، ص: 353.
(4) مسلم، كتاب: فضائل الصحابة (4/ 1871).

آخر، أن معناه: ما منعك أن تخطئه في رأيه واجتهاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتهادنا وأنه أخطأ[1].

وقال أبو العباس القرطبي صاحب المفهم معلقاً على وصف ضرار الصُّدائي لعلي ﷺ وثنائه عليه بحضور معاوية، وبكاء معاوية من ذلك وتصديقه لضرار فيما قال: وهذا الحديث يدل على معرفة معاوية بفضل علي ﷺ ومنزلته، وعظيم حقه ومكانته، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبّه، لما كان معاوية موصوفاً به من العقل والدين، والحلم وكرم الأخلاق وما يروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح، وأصح ما فيها قوله لسعد بن أبي وقاص: ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ وهذا ليس بالتصريح بالسب، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك، أو من نقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية، سكن وأذعن، وعرف الحق لمستحقه[2]، قال الدكتور الرحيلي في كتابه «الصحب والآل»: والذي يظهر لي في هذا والله أعلم: أن معاوية إنما قال ذلك على سبيل المداعبة لسعد، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل علي ﷺ، فإن معاوية ﷺ كان رجلاً فطناً ذكياً، يحب مطارحة الرجال واستخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف ما عند سعد في علي ﷺ فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المثير. وهذا مثل قوله ﷺ لابن عباس: أنت على ملة علي؟ فقال له ابن عباس: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله ﷺ[3]. فظاهر أن قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأما ما ادّعى الإماميَّة من لأمر السب فحاشا معاوية ﷺ أن يصدر منه مثل ذلك[4]، والمانع من هذا عدة أمور:

1 - أن معاوية ﷺ ما كان يسب علياً ﷺ كما تقدم حتى يأمر غيره بسبه، بل كان معظماً له، معترفاً له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه، فقد قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه: أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني[5]. وعن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: «ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم»[6]، فهل يسوغ في عقل ودين أن يسب معاوية علياً، بل ويحمل

(1) شرح صحيح مسلم (15/ 175).
(2) المفهم للقرطبي (6/ 278).
(3) الإبانة (1/ 355) شرح أصول اعتقاد اللالكائي (1/ 94).
(4) الانتصار للصحب والآل، ص: 375.
(5) البداية والنهاية (8/ 133).
(6) المصدر نفسه (8/ 133).

الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا[1].

2 - أنه لا يعرف بنقل صحيح عن معاوية ﷺ تعرض لعلي ﷺ بسب أو شتم أثناء حربه له في حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد انتهاء حربه معه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

3 - أن معاوية ﷺ كان رجلاً ذكياً مشهوراً بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب علي - حاشاه ذلك - أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبي وقاص ﷺ، وهو من هو في الشجاعة والفضل والورع، مع عدم دخوله في الفتنة أصلاً، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتدبيراً، فكيف بمعاوية.

4 - أن معاوية ﷺ انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن علي ﷺ له، واجتمعت عليه الكلمة ودانت له الأمصار بالملك، فأي نفع له في سب علي؟ بل الحكمة وحسن السياسة تقتضي عدم ذلك، لما فيه من تهدئة النفوس، وتسكين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية.

5 - أنه كان بين معاوية ﷺ بعد استقلاله بالخلافة وأبناء علي من الألفة والتقارب، ما هو مشهور في كتب السير والتاريخ[2]، ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بمائتي ألف. وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي، فقال له الحسين ﷺ: ولم تعط أحد أفضل منا[3]، ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، وأمر له بثلاثمائة ألف[4]. وهذا مما يقطع الكذب مما يدَّعى في حق معاوية من حمله الناس على سب علي، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم؟! وبهذا يظهر الحق في هذه المسألة، وتتجلى الحقيقة[5]، كما أن المجتمع في عمومه مقيد بأحكام الشرع حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذيء [6]، وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة ﷺ مرفوعاً: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»[7].

---

(1) الانتصار للصحب والآل، ص: 376.
(2) الانتصار للصحب والآل، ص: 376.
(3) البداية والنهاية (8/ 139).
(4) البداية والنهاية (8/ 140).
(5) الانتصار للصحب والآل، ص: 377.
(6) صحيح ابن حبان، رقم: 47، صححه الألباني في المصحيحة، رقم: 320.
(7) البخاري، رقم: 6516.

خامساً: معاوية وسمُّ الحسن بن علي:

ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن علي توفي متأثراً بالسم الذي وضع له، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس أمير كندة، فهذه أم موسى سرية علي تتهم جعدة بأنها دست السم للحسن، فاشتكى منه شكاة: فكان يوضع تحته طست[1]، وترفع أخرى نحواً من أربعين يوماً[2]، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهي ضعيفة[3]، وحاول البعض من الأخباريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليزيد ووفاة الحسن، وزعموا أن يزيد ابن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس أن سُمي حسناً فإني سأتزوجك، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء: فقال: إنا والله لم نرضك له أفنرضاك لأنفسنا[4]؟، وفي سندها يزيد بن عياض بن جعدية، كذّبه مالك وغيره[5]، وقد وردت هذه الروايات في كتب أهل السنة بدون تمحيص، مع العلم أن أسانيد تلك الروايات أسانيدها ضعيفة[6].

1 - قال ابن العربي: فإن قيل: دس على الحسن من سمَّه، قلنا هذا محال من وجهين: **أحدهما:** أنه ما كان ليتقي من الحسن بأساً وقد سلَّم الأمر، **الثاني:** أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بيِّنة على أحد من خلقه في زمن متباعد ولم نثق فيه بنقل ناقل، بين أيدي قوم ذوي أهواء، وفي حال فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغي، فلا يقبل منها إلا الصافي، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم[7].

2 - وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمّ الحسن، فهذا ممن ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك ببينة شرعية، أو إقرار معتبر، ولا نقل يجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم[8].

وقد جاء عن ابن تيمية في رده عن اتهام معاوية بسمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة وكانت ابنته تحت الحسن، حيث قال: وإذا قيل أن معاوية أمر أباها كان هذا ظناً محضاً، والنبي ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**». ثم إن الأشعث بن

---

(1) طست: إناء معلوم.
(2) الطبقات، تحقيق السُّلمي (1/ 338) إسناده ضعيف.
(3) المصدر نفسه (1/ 338).
(4) تهذيب الكمال (6/ 453).
(5) تقريب التهذيب، ص: 604.
(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 393.
(7) العواصم من القواصم، ص: 220 - 221.
(8) منهاج السنة النبوية (4/ 469).

قيس مات سنة أربعين، وقيل: سنة إحدى وأربعين، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته[1]. وهذا يدل على قدرة ابن تيمية للنقد العلمي القوي للروايات التاريخية.

3 - وقال الذهبي: قلت هذا شيء لا يصح فمن الذي اطلع عليه[2].

4 - وقال ابن كثير: روى بعضهم: أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث: أن سُمِّي الحسن وأنا أتزوجك بعده ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى[3].

5 - وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الإماميَّة، حاشا لمعاوية من ذلك[4].

6 - د. جميل المصري: وقد علق على هذه القضية بقوله: . . . ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد. . ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعاً آنذاك، لأننا لا نلمس[5] لها أثراً في قضية قيام الحسن، أو حتى عتاباً من الحسين لمعاوية. وبالنسبة لسم الحسن ﷺ، فنحن لا ننكر هذا، فإذا ثبت أنه مات مسموماً فهذه شهادة له وكرامة في حقه[6].

وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند، كما مر معنا، ومن حيث المتن وهل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال - كما تذكر الروايات - حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالي تكون زوجة له؟ أليست جعدة ابنة أمير قبيلة كندة كافة وهو الأشعث بن قيس، ثم أليس زوجها وهو الحسن بن علي أفضل الناس شرفاً ورفعة بلا منازعة، إن أمه فاطمة ﷺ، وجده رسول الله ﷺ وكفى به فخراً، وأبوه علي بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذاً ما هو الشيء الذي تسعى إليه جعدة وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير[7]. إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة

(1) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص: 266.
(2) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص: 40، اتهامات لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشي، ص: 174.
(3) البداية والنهاية (8/ 43).
(4) تاريخ ابن خلدون (2/ 527).
(5) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص: 482، مرويات خلافة معاوية، ص: 395.
(6) منهاج السنة (4/ 42).
(7) مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص: 123.

الإسلامية، وزادهم غيظاً وحنقاً ما قام به الحسن بن علي، كما أن قناعتهم قوية بأن وجوده حياً صمام أمان للأمة الإسلامية، فهو إمام ألفتها وزعيم وحدتها بدون منافس، وبالتالي حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتن إلى ما كانت عليه فلا بد من تصفيته وإزالته، فالمتهم الأول في نظري هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين وجه لهم الحسن صفعة قوية عندما تنازل لمعاوية وجعل حداً للصراع، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم الذين طعنوه في فخذه، فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم في النهروان وغيرها[1].

سادساً: موقف معاوية من قتلة عثمان رضي الله عنهما:

كان من ضمن شروط الحسن في صلحه مع معاوية ألا يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء[2]، والذي يلاحظه المؤرخ أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان[3]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي وهي قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفات إلى الماضي، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[4]، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية، حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحداً بذنب سابق، وتأسى بذلك بصلح الحسن على الإحسان والعفو، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء في عهد معاوية إلى حد كبير[5].

وجاء في عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية بن أبي سفيان لما قدم بعد عام الجماعة – المدينة – دخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان وبكت ونادت أباها، فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس[6].

والذي يعتد به من كلام ابن قتيبة ما جاء عن العهود والمواثيق التي أبرمت بين معاوية والحسن، وقضت بالصلح بين الناس، ووضع الحرب وحقن الدماء، وعدم تهييج النفوس،

---

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص: 124.
(2) التبيين في أنساب القرشيين، ص: 127.
(3) الخلفاء الراشدين، للنجار، ص: 482.
(4) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص: 341.
(5) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص: 349.
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 69، السلطان لابن قتيبة، ص: 58.

وإضافة إلى ذلك فإن السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين والنهروان ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة في ذهن الخلفاء من بني أمية ونوابهم في الأغلب، وأما انتصار بني أمية لعثمان كان حقيقة لا شبهة فيها[1].

سابعاً: مقتل حجر بن عدي ﷺ:

تحدثت معظم المصادر في مقتل حجر بن عدي ﷺ ومن هذه المصادر: ابن سعد[2]، وخليفة بن خياط[3] باختصار شديد، والبلاذري[4]، واليعقوبي[5]، والمسعودي[6]، وأبو الفرج الأصفهاني[7] مطولاً، وابن الجوزي[8]، وابن الأثير[9] مطولاً، والذهبي[10]، وابن كثير[11].

وقد اعتمد الطبري في خبر حجر بن عدي وأصحابه على أبي مخنف المؤرخ الشيعي المشهور، والذي ليس بثقة ولا يعتمد عليه عند علماء المسلمين من أهل السنة، فقد نقل الطبري عنه ست عشرة رواية. وعموماً فإن خبر مقتل حجر بن عدي ورد في مصادر متعددة، ولم تنفرد الروايات الشيعية بسوق خبره، ولكن رواية أبي مخنف الساقط الاعتبار عند علماء أهل الجرح والتعديل أشارت إلى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة بشتم علي وذمه، لذلك كان المغيرة لا يترك ذمّ علي في خطبته طوال فترة ولايته على الكوفة، ونص خطبته التي أغضبت حجر بن عدي كما أوردها أبو مخنف: اللّهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه، واجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك، واتبع سنة نبيك ﷺ، وجمع كلمتنا وحقن دماءنا، وقُتل مظلوماً، اللّهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه والطالبين بدمه. ويدعو على قتلته[12]، وكما نلاحظ من نص الخطبة أنه لم يرد فيها ذمٌّ علي ومع ذلك فإن الرواية تشير أنّ هذه الخطبة تضمنت ذلك إلا إذا تأولت لعنه لقتلة عثمان بأنه ذم لعلي[13]، وبراءة علي من دم عثمان يعرفها القاصي والداني وقد أثبتّها في كتبي عن عثمان وعلي والحسن ﷺ جميعاً. ومهما يكن من أمر فإن الباحث في مقتل حجر بن عدي ﷺ، يلاحظ أن موقف حجر من أمير المؤمنين معاوية قد مرّ بمرحلتين:

---

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 70.
(2) الطبقات (6/ 217) تحقيق إحسان عباس.
(3) التاريخ، ص: 213.
(4) أنساب الأشراف (4/ 242).
(5) تاريخ اليعقوبي (2/ 230).
(6) مروج الذهب (3/ 12).
(7) الأغاني (17/ 133).
(8) المنتظم (5/ 241).
(9) الكامل في التاريخ (2/ 488).
(10) سير أعلام النبلاء (3/ 462).
(11) البداية والنهاية (11/ 227).
(12) تاريخ الطبري (6/ 168 إلى 169).
(13) أثر التشيع على الروايات، ص: 368 إلى 370.

- المرحلة الأولى: مرحلة المعارضة القولية: (41هـ - 51هـ):

كان حجر بن عدي الكندي، أبو عبد الرحمٰن الشهيد، له صحبة ووفادة، وفد مع أخيه هانئ بن الأدبر، ولا رواية له عن النبي ﷺ وسمع من علي وعمار[1]، وكان شريفاً، أميراً مطاعاً، أمَّاراً بالمعروف، مقداماً على الإنكار من شيعة علي رضي الله عنه، شهد صفين أميراً، وكان ذا صلاح وتعبد[2]، وكان رضي الله عنه من المعارضين للصلح الذي قام بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها في هذه المرحلة أي فعل، بل اقتصرت على الأقوال فقط[3]، وفي ذلك يقول البلاذري: . . . لم يزل حجر بن عدي منكراً على الحسن بن علي بن أبي طالب صلحه لمعاوية، فكان يعذله على ذلك ويقول: تركت القتال ومعك أربعون ألفاً ذوو نيات وبصائر في قتال عدوك، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعيبه، ويُظلِّمه[4]، فكان هذا هجيراه[5]، وعادته.

- المرحلة الثانية: مرحلة المعارضة الفعلية:

هذه المرحلة بدأت في سنة 51هـ حيث حصل في هذه السنة تدهور مفاجئ في علاقة حجر ابن عدي مع زياد بن أبيه والي العراق، وقد ذكرت المصادر سببين في سبب تدهور هذه العلاقة:

أ - ما ذكر من إقدام المغيرة بن شعبة على الثناء على عثمان والترحم عليه، وذم علي بن أبي طالب، وإقدام حجر بن عدي على مدح علي بن أبي طالب، وذم عثمان بن عفان، وسكوت المغيرة عن حجر بن عدي، فلما مات المغيرة بن شعبة وتولى زياد بن أبيه، قال زياد في عثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب مثلما كان يقول المغيرة، فقام حجر بن عدي وقال فيهما مثلما كان يقول المغيرة، فكان ذلك سبب ابتداء المواجهة بين حجر وزياد[6].

ب - ما ذُكر من إطالة زياد الخطبة، وتأخير الصلاة، وقيام حجر بإنكار ذلك على زياد، فكان هذا سبب ابتداء المواجهة بينهما[7] وهذان السببان يكدرهما ما يلي:

● - أن سياسة المغيرة رضي الله عنه مع أهل الكوفة اتسمت بالعفو والصفح، وليس بإثارة

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 462).
(2) المصدر نفسه (3/ 463).
(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 422.
(4) أي: ينسبه للظلم.
(5) هجيراه: دأبه وشأنه، القاموس المحيط، ص: 637.
(6) تاريخ الطبري (6/ 169).
(7) تاريخ الطبري (5/ 169).

الأحقاد والإحن، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق زياد بن علاقة قال: سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن ثم قال: استغفروا لأميركم، فإنه كان يحب العفو[1]. ثم قال: أما بعد فإني أتيت النبي ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ: «النصح لكل مسلم». فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم[2]، ثم استغفر ونزل[3].

● - أن ضم الكوفة إلى زياد كان في سنة 49هـ، وهو ما صرح به فيل مولى زياد، حيث قال: ملك زياد العراق خمس سنين، ثم مات سنة ثلاث وخمسين. وهذه الرواية التي تحدد تاريخ ضم الكوفة إلى زياد بن أبيه تعد أصح ما في الباب، وحيث إن ولاية زياد على الكوفة كانت سنة 49هـ، ولم يحدث الصدام بين حجر وأنصاره وزياد والي الكوفة، لأن الحسن بن علي ﷺ لازال حياً ووجوده كان كفيلاً بردع تحركات المعارضين للصلح من أنصاره لأنه ﷺ اشترط عليهم أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. ولكن بعد وفاة الحسن ﷺ عام 51هـ[4] - تغير موقف بعض قيادات أهل العراق ومنهم حجر بن عدي من المعارضة القولية إلى الفعلية، فقد روى البلاذري بإسناده إلى الشعبي، وغيره، قالوا: لما قدم زياد الكوفة - عام 49هـ - بعث إلى حجر فقال: يا هذا، كنا على ما علمت، وقد جاء أمر غير ذلك، أمسك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريري فهو مجلسك، فإياك أن تستنزلك السفلة أو تستفزك، إني لو استخففت بحقك هان علي أمرك، ولم أكلمك من كلامي هذا بحرف، فلما صار إلى منزله اجتمعت إليه الشيعة فقالوا: أنت شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر[5]. فلمّا شخص زياد إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الصلاة والحرب، ومهران مولاه على الخراج، وأمر العمال بمكاتبة عمرو.. فكتب عمرو إلى زياد: إن كانت لك بالكوفة حاجة فالعجل، فإني كتبت إليك وليس في يدي منها مع حجر إلا القصر، فأخذ السير حتى قدم الكوفة، فبعث إلى عدي بن حاتم الطائي، وجرير بن عبد الله البجلي... فقال: ائتوا هذا الشيخ المفتون، فإني خائف أن يحملنا من أمره على ما ليس من شأننا فأتوه... وكلمه القوم، فلم يكلم منهم أحداً، فأتوا زياداً فقال: مهيم[6]؟ فقال عدي: أيها

---

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 424.

(2) إشارة إلى أنه وفى بما بايع عليه رسول الله ﷺ، وكان صدق في نصحه.

(3) البخاري، صحيح البخاري مع الفتح (1/ 168).

(4) مرويات خلافة معاوية، ص: 425.

(5) مرويات خلافة معاوية ص: 428، أنساب الأشراف (4/ 246).

(6) مهيم: كلمة استفهام، أي ما وراءك.

الأمير، استذمه[1]، فإن له سناً فقال: لست لأبي سفيان إذاً، ثم أرسل إليه الشُّرَط فقوتلوا[2]، وجاء في رواية أخرى: لما قدم زياد الكوفة أميراً[3] أكرم حجر بن الأدبر[4]، وأدناه، وشفَّعَه، فلما أراد الانحدار إلى البصرة[5] دعاه فقال له: يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك، وإني أريد البصرة، فأحب أن تشخص معي، فإني أكره أن تتخلف بعدي، فعسى أن أبلِّغ عنك شيئاً فيقع في نفسي، وإذا كنت معي لم يقع في نفسي منك شيء، فقد علمت رأيك في علي بن أبي طالب، وقد كان رأي من قبلك فيه على مثل ذلك، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية، لم أتّهم قضاء الله ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر علي وأصحابه، وإني أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها[6].

والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص علي ﷺ ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل في الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن، فقال له حجر: إني مريض ولا أستطيع الشخوص. قال: صدقت، والله إنك لمريض الدين والقلب، مريض العقل، وايم الله لئن بلغني عنك شيء أكرهه سأحرص على قتلك، فانظر أو دع، فخرج زياد فلحق بالبصرة، واجتمع إلى حجر قُرّاء أهل الكوفة، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر، ولا يريد شيئاً إلا منعوه إياه، فكتب إلى زياد: إني والله ما أنا في شيء مع حجر وأصحابه، وأنت أعلم، فركب زياد بغاله حتى اقتحم الكوفة، فلما قدمها تغيب حجر، فجعل يطلبه فلا يقدر عليه[7]. أما تفاصيل المواجهة بين شرطة زياد وحجر بن عدي وأنصاره، فقد انفرد أبو مخنف من بين المصادر التي وقفت عليها بإيراد تفاصيلها[8]، كذلك انفرد أبو مخنف بإيراد تفاصيل مهمة عن شهادة أهل الكوفة على حجر وأصحابه[9].

1 - قضاء معاوية ﷺ في حجر ﷺ وأصحابه:

نظراً لخطورة قضية حجر بن عدي وحساسيتها، فقد وافق زياد بن أبيه على شرط حجر بن

---

(1) استذمه: لا تخفر ذمته.
(2) أنساب الأشراف (4/ 246، 247).
(3) وذلك سنة 49هـ.
(4) الأدبر: لقب عدي والد حجر.
(5) وذلك سنة 51هـ.
(6) هذا تحذير من زياد لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة ولذلك حرص على اصطحابه معه إلى البصرة.
(7) أنساب الأشراف (4/ 270، 271).
(8) تاريخ الطبري (6/ 177، 183).
(9) المصدر نفسه (6/ 184، 186).

عدي عند استسلامه، وهذا الشرط هو إحالة قضية حجر ومن معه إلى معاوية ليحكم فيها[1].

وقبل الحديث عن حكم معاوية في حجر وأصحابه، ينبغي التذكير بالتّهم الموجهة إليهم، وهذه التهم كما وردت عن أبي مخنف هي: . . . أن حجراً جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب[2]، والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه، وعلى مثل رأيه وأمره[3].

أما قضاء معاوية رضي الله عنه في حجر رضي الله عنه وأصحابه فإنه لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من علي رضي الله عنه كما تزعم بعض الروايات[4]، بل استخار الله سبحانه وتعالى فيهم، واستشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم، واستحيىٰ بعضهم، والحجة في ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل[5]، بإسناد حسن قال: حدثني أبي[6] قال: حدثنا أبو المغيرة[7]، قال: حدثنا ابن عياش[8]، قال: حدثني شرحبيل بن مسلم[9]، قال: لما بُعث بحجر بن عدي الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية بن أبي سفيان، استشار الناس في قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت، فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادي فنادى: أين عمرو بن الأسود العنسي[10]، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا إنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعي ونحن الرعية ألا وأنت أعلمنا بدائهم وأقدرنا على دوائهم، وإنما علينا أن نقول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

فقال معاوية: أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم ورمى بها ما بين عيني معاوية. ثم قام المنادي فنادى: أين أبو المسلم الخولاني؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ

(1) تاريخ الطبري (6/ 187، 188).
(2) المقصود به علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي كنيته.
(3) تاريخ الطبري (6/ 188).
(4) مرويات خلافة معاوية، ص: 430.
(5) قال عنه الذهبي صدوق ثقة السير (12/ 529).
(6) أحمد بن محمد بن حنبل، ثقة حافظ فقيه حجة.
(7) عبد القدوس بن الحجاج الخولاني، أمير المغيرة.
(8) إسماعيل بن عياش العنسي، الحمصي، صدوق.
(9) شرحبيل بن مسلم الخولاني، الشامي، من شيوخ الشام.
(10) مخضرم، ثقة عابد، من كبار التابعين، مات في خلافة معاوية.

جامعناك، ولا نكثنا منذ بايعناك على عواتقنا، إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك، وإن سبقناك نظرناك، ثم جلس.

ثم قام المنادي فقال: أين عبد الله ابن مِخْمَر الشرعبي[1]؟ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين في هذه العصابة من أهل العراق، إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفو فقد أحسنت. فقام المنادي فنادى: أين عبد الله بن أسد القسري؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك، ووليتك، وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا على أنفسهم العقوبة، وإن تعفو فإن العفو أقرب للتقوى يا أمير المؤمنين، ولا تطع فينا من كان غشوماً ظلوماً، بالليل نؤوماً، عن عمل الآخرة سؤوماً[2]. يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انقشعت أوتادها، ومالت بها عمادها، وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها، ثم جلس.

فقلت[3] لشرحبيل: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضاً واستحيىٰ بعضاً، وكان فيمن قتل حجر ابن عدي الأدبر[4]، وكان حجر ﷺ قبل قتله قال: يا قوم دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فتوضأ، وصلَّى ركعتين، فطوَّل، فقيل له: طوَّلت، أجزعت؟ فقال: ما صليت صلاة أخفّ منها، ولئن جزعت لقد رأيت سيفاً مشهوراً، وكفناً منشوراً، وقبراً محفوراً، وكانت عشائرهم قد جاؤوهم بالأكفان، وحفروا لهم القبور.

ويقال: بل معاوية الذي فعل ذلك. وقال حجر: اللّهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل العراق شهدوا علينا وإن أهل الشام قتلونا. فقيل له: مُدَّ عنقك. فقال: إنَّ ذاك لدم ما كنت لأُعين عليه[5]، وجاء في رواية: لما أتي معاوية بحجر، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: أو أمير المؤمنين أنا؟ اضربوا عنقه، فصلَّى ركعتين وقال لأهله: لا تطلقوا عني حديداً، ولا تغسلوا عني دماً، فإني ملاقٍ معاوية على الجادَّة[6].

وقد علق ابن العربي على مقتل حجر ابن عدي ﷺ فقال: . . وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فساداً[7]، وقد اعتمد معاوية ﷺ في قضائه على قوله ﷺ: «**من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يَشُقَّ عصاكم**[8]، **أو يفرق**

(1) شامي مخضرم، يروي عن أبي الدرداء ﷺ .
(2) مرويات خلافة معاوية، ص: 434، نقلاً عن تاريخ دمشق (4/ 271).
(3) القائل هو إسماعيل بن عياش.
(4) أحمد بن حنبل : المسائل رواية ابنه صالح (2/ 328، 331).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 465).
(6) المصدر نفسه (3/ 466).
(7) العواصم من القواصم، ص: 220.
(8) يشق عصاكم : يفرق جماعتكم.

جماعتكم فاقتلوه»[1]، وقوله ﷺ: «إنه ستكون هنات[2]، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان»[3]. ومما يجدر التذكير به في هذا المقام أن معاوية ﷺ لم يكن ليقضي بقتل حجر بن عدي ﷺ لو أن حجراً اقتصر في معارضته على الأقوال فقط ولم ينتقل إلى الأفعال، ولنا في خبر المسور بن مخرمة وغيره مما مرّ معنا دلالة على ذلك[4].

2 - موقف عائشة ﷺ من مقتل حجر بن عدي ﷺ:

بالغت الروايات في ذكر موقف عائشة ﷺ من مقتل حجر بن عدي، حيث ذهبت بعض الروايات إلى زعم بتهديد عائشة لمعاوية بالقتل حين زارها سنة 51هـ، وكذلك التهديد بمحاربة معاوية[5].

وهذه الروايات لم يصح منها شيء في حق أم المؤمنين عائشة ﷺ، وأما حقيقة موقفها فعن ابن أبي مليكة: أن معاوية جاء يستأذن على عائشة، فأبت أن تأذن له، فخرج غلام لها يقال له: ذكوان[6]، قال: ويحك أدخلني على عائشة فإنها قد غضبت علي، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له، وكان أطوع مني عندها، فلما دخل عليها قال: أمتاه فيما وجدت عليَّ يرحمك الله؟ قالت: . . . وجدت عليك في شأن حجر وأصحابه أنك قتلتهم فقال لها: . . . وأما حجر وأصحابه فإني تخوفت أمراً، وخشيت فتنة تكون، تهراق فيها الدماء، تستحل فيها المحارم، وأنت تخافيني، دعيني والله يفعل ما يشاء، قالت: تركتك والله، تركتك والله، تركتك والله[7]، وجاء في رواية أخرى: لما قدم معاوية دخل على عائشة، فقالت: أقتلت حجراً؟ قال: يا أم المؤمنين، إني وجدت قتل رجلٍ في صلاح الناس، خير من استحيائه في فسادهم[8].

3 - ندم معاوية على قتل حجر بن عدي:

جاء في رواية: . . أن عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في

(1) مسلم صحيح مسلم بشرح النووي (12/ 242).
(2) هنات: جمع هَنَة، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة، شرح صحيح مسلم (12/ 241).
(3) مسلم، صحيح شرح النووي (12/ 241).
(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 435.
(5) المصدر نفسه، ص: 438، مثل ما ورد في تاريخ الطبري.
(6) أبو عمرو مولى عائشة، ثقة، توفي في المدينة سنة 63هـ.
(7) تاريخ دمشق (4/ 273، 274)، نقلا عن مرويات معاوية، ص: 440.
(8) المصدر نفسه (4/ 273) نقلاً عن مرويات معاوية، ص: 440.

حجر وأصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ قال: غاب حين غاب عني مثلك من حلماء قومي[1]، قال الذهبي: يعني أنه ندم[2]. ومع أن قتل حجر ﷺ وإن ذكر له من الأعذار والمبررات ما ذكر، ففي الحقيقة كانت غلطة من معاوية، وكان ينبغي أن يتسع حلمه لصحابي من صحابة رسول الله ﷺ. وقد ندم معاوية ندماً كبيراً على قتل حجر، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته[3]، وقد روي أنه قال عند موته: يوم لي من ابن الأدبر طويل: ثلاث مرات - يعني حجراً[4] -.

4 - موقف لمالك بن هبيرة السكوني ﷺ:

لم يقبل معاوية ﷺ شفاعة مالك بن هبيرة السكوني في حجر بن عدي، فجمع مالك قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقي القتلة وسألهم، فقالوا: مات القوم. وسار إلى عَدِيّ فتيقن قتلهم فأرسل في أثر القتلة فلم يدركهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها في نفسه وكأني بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه[5].

وكان مالك بن هبيرة السكوني صحابياً جليلاً وكان معاوية ﷺ ولّاه حمص، وكان يقول فيه: ما أصبح عندي من العرب أوثق في نفسي نصحاً بجماعة المسلمين وعامتهم من مالك بن هبيرة[6]. وقد كان يَسَعُ معاوية غير القتل من العقوبات، كالسجن، أو تفريق حجر وجماعته، أو يمنُّ بهم على عشائرهم[7].

5 - ما قيل في حجر بن عدي من رثاء:

قالت هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية في رثاء حجر:

ترفَّعْ أيها القمرُ المنيرُ ... تَبَصَّرْ هل ترى حِجْراً يسيرُ
يسيرُ إلى معاويةَ بنِ حربٍ ... ليقتلَه كم زَعَمَ الأميرُ
تَجَبَّرَتِ الجبابِرُ بعد حجرٍ ... وطابَ لها الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ
وأصبحتِ البلادُ بها مُحُولاً ... كأن لم يُحْيِهَا مُزْنٌ مَطِيرُ

(1) تاريخ الطبري (6/ 195).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 465).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 116.
(4) تاريخ الطبري (6/ 196).
(5) تاريخ بن خلدون (3/ 17).
(6) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 671، الطبقات الكبرى (7/ 420).
(7) القرّاء ودورهم في الحياة العامة، ص: 195.

ألا يا حجرُ حجرُ بن عديٍّ تلقاك السَّلامة والسُّرورُ
أخافُ عليكَ مَا أدري عديًّا وشيخاً في دمشق له زئيرُ

إلى أن قالت:

ألا يا ليت حجراً مات موتاً ولم يُنْحَرْ كما نُحِرَ البعيرُ
فإنْ تَهْلِكْ فكلُّ زعيمِ قومٍ مِنَ الدُّنيا إلى هُلكٍ يَصيرُ[1]

وفيما عدا قضية حجر وأصحابه فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته، والتي لخصها هو نفسه في جمل يسيرة حين قال: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت كانوا إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها[2]. وهي سياسة حكيمة تفسح المجال أمام القول إذا ما ظل في حدود لا يتعداها، فحيث يكفي المال عن اللسان يعتمده، ولا يضع السوط حيث يكفي اللسان، ولا يضع السيف حيث يكفي السوط[3]، وقد قيل: بأن سليم مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية: اسكت ما أدرك صاحبك شيئاً قط بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني[4].

المبحث الثاني
مباشرة معاوية للأمور بنفسه
وحرصه على توطيد الأمن في خلافته

أولاً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

ومن القواعد التي قامت عليها سياسة معاوية الداخلية: مباشرة الأمور بنفسه، وكان ﷺ يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة في دولته، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره، إلا أنه لم يكن يكتفي بذلك بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين[5].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 196).
(2) السلطان لابن قتيبه، ص: 51.
(3) السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هوّاري، ص: 262.
(4) السلطان لابن قتيبة، ص: 53.
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 117.

1 - مجلس معاوية في يومه:

كان معاوية رضي الله عنه يظهر في اليوم والليلة خمس مرات، فكان إذا صلى الصبح جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزأه ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ثم يصلي أربع ركعات، ويخرج إلى مجلسه، فينادي بخاصته، فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراءه، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم، ثم يؤتى بالغداء الأصغر، وهو فضل عشاء الليل، . . . ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله لما أراد، ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسي، ويسند ظهره إلى المقصورة، ويقوم الحراس، فيقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة، فيقول: ظلمت، فيقول: أعزّوه، ويقول: عدي عليّ، فيقول: ابعثوا معه، ويقول: صنع بي، فيقول: انظروا له، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم، ولا يشغلني أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله عمره؟ فيقول: بنعمة من الله، فإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافاً، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول: غاب فلان عن أهله فيقول: تعاهدوهم وأعطوهم، واقضوا حوائجهم واخدموهم.

ويؤتى بالغداء ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقال له: اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه بأمره، فيقال: يا عبد الله أعقب، فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، وينصرف الناس، ويدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلّي[1] ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزاد الحاج، من الأخبصة اليابسة والخشكبالج[2]، والأقراص المعجونة بالسكر والليّن من دقيق السميد، والكعك المسمن والفواكه اليابسة، وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة، ويُدخل عليه وزراءه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى إذا كان في آخر وقت العصر، خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منها مقدار ما ينادي بالمغرب فيصليها، ثم يصلي أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة خمسين آية، يجهر تارة ويخافت أخرى.

ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادي بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلي ثم يؤذن

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 309.
(2) الخشكبالج: نوع من الحلوى.

للخاصة، وخاصة الخاصة، والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويسمر ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياساتها، وسير الأمم وحروبها، ومكائدها وسياساتها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه: من الحلواء وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم: فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكّلوا بحفظها وقراءتها، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار، فيخرج ثم يصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا كل يوم وليلة وقد تبعه في ذلك، عبد الملك بن مروان وغيره، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه السياسة ولا التأني للأمور ولا مداراة الناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم[1].

2 - الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ - **ديوان الرسائل**: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه، ومواثيقه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية إلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية[2]ومن أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة في هذا الديوان في عهد معاوية عبد الله بن أوس الغساني، وزمل بن عمرو العذري، واستمر هذان الكاتبان في خلافة يزيد الأول[3]، وكانت وسيلة الرسائل في الاتصال بالولاة وقادة الجند، والقضاة، وزعماء القبائل تابعة لمعاوية وتحت إشرافه المباشر.

ب - **ديوان الخاتم**: أنشأ معاوية بن أبي سفيان ﷺ ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة فلا تطلع عليها عين جاسوس ولا تصل إليها يد خائن[4]، وكان من أغراض هذا الديوان تحاشي التزوير، ومنع حدوث التلاعب في الكتب التي يصدرها الخليفة، ثم أصبح الديوان بمثابة سجل للكتب الصادرة، وصارت الدولة تعتمد عليه في تدقيق الأوامر والمراسلات التي تتعلق بالصرف والحسابات بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى[5]، كما أنه كان يقوم بالإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى، وبيان الأخطاء التي تقع فيها:

وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول ﷺ، وختم الخلفاء الراشدين، فختم الرسول ﷺ

(1) الشهب اللامعة، ص: 310، 311، مروج الذهب (3/ 220، 222).
(2) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 124.
(3) المصدر نفسه، ص: 156.
(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 433.
(5) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 170.

يعني التوقيع بالختم، بينما نراه في عهد معاوية، وعصر الدولة الأموية بمثابة جهاز للفحص والتدقيق في الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية: عبد الله بن محصن الحميري، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد بن أبيه وهو على العراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، فأخذ عمراً بردها وحبسه، فأدّاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وخزم الكتب[1]، ولم تكن تخزم[2]، وفي الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أملته ظروف اتساع الدولة الإسلامية في عهد معاوية رضي الله عنه، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسري لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته[3].

ج - **ديوان البريد**: يذكر المؤرخون: أن معاوية بن أبي سفيان أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية، وأصدر أوامره بوضع الخيول في عدة أماكن، وقام بتنظيمه[4]، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم[5]، وكانت أعماله في العصر الأموي واسعة ومتشعبة، نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية، وقد قام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق المواصلات التي يسير عليها صاحب البريد، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة، والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالشام[6].

ولم تكن خدمات البريد قاصرة على ما يتعلق بالدولة، بل كان في بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر[7]، وكانت الدولة في عهد معاوية لا تستغني عن البريد في حالات السلم، وحالات الحرب، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة، وقد ذكرت بعض المصادر أسماء بعض من اشتغل مع معاوية في ديوان البريد وهما: نصر بن ذبيان، والكميت، كانا على البريد في أيام معاوية واستخدمهما في نقل الأخبار بين الشام والحجاز[8].

وكانت أهم وسائل النقل: البغال[9]، والخيل[10]، ويعتبر معاوية مؤسس نظام البريد في

(1) تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر ثم يوضع خاتم الخلافة.
(2) الإدارة في العصر الأموي، ص: 287، مرويات خلافة معاوية، ص: 75.
(3) مرويات خلافة معاوية، ص: 76.
(4) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 174.
(5) المصدر نفسه، ص: 174.
(6) المصدر نفسه، ص: 175.
(7) المصدر نفسه، ص: 175.
(8) المصدر نفسه، ص: 176.
(9) المصدر نفسه، ص: 176.
(10) العيون والحدائق (3/ 82)، إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 176.

الإسلام، حيث كانت الرسائل ترسل قبل ذلك من قبل الخليفة إلى الجهة التي يراد إرسالها إليها، عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده، حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة، فكانت الرسائل بذلك تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها، وأمّا نظام البريد الذي استخدمه معاوية اقتباساً من البيزنطيين فقد كان يقتضي أن تقسم الطرق إلى مسافات، يوضع في نهاية كل مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد، وينطلق بها مسرعاً حتى إذا بلغ نهاية المسافة سلمها لمن بعده، وتظل الرسالة تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسلة إليها في أقصر مدة، وأما مقدار المسافة الواحدة، فكان أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، وبذلك يكون طول المسافة اثني عشر ميلاً، أي: عشرين كيلومتراً تقريباً، وهذه المسافة تسمى بريداً، وبهذه الطريقة تصل الرسالة بأكبر سرعة، دون إجهاد لصاحب البريد، حيث إن المسافة يمكن قطعها بسهولة، وتناوب أصحاب البريد إذا كان سيقطع المسافة وحده، وهكذا يوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد واختصار الوقت[1]، يقول أبو هلال العسكري: أول من وضع البريد في توصيلها يوفر الزمن الذي يستريحه صاحب البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وأحكم أمره عبد الملك[2].

د - **نظام الكتبة**: كان هناك كاتب لديوان الرسائل، وآخر لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان الشرطة، وخامس لديوان القضاء، وكان في عهد الأمويين أكبر دواوين الدولة، ويقوم الموظفون فيه بنسخ أوامر الخليفة، وإيداعها ديوان الخاتم، بعد أن تخزم وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب الديوان[3]، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة، منذ أنشأه معاوية وحتى أواسط العهد العباسي[4]، وكانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية(ديوان الخراج) ووزارة الدفاع (ديوان الجند) ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة) ووزارة العدل (ديوان القضاء) كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يكتب في العراق باللغة الفارسية، وفي الشام ومصر باللغة الرومية، وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان[5].

---

(1) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 100).
(2) الأوائل، ص: 237.
(3) تاريخ الإسلام (1/ 458).
(4) المصدر نفسه (1/ 459).
(5) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 102).

ثانياً: حرصه على توطيد الأمن في خلافته:

ومن القواعد التي بنى عليها معاوية سياسته الداخلية توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف.

1 - الحاجب: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام، لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه[1]، وكانت بعض المظاهر الملكية لها ما يبررها في هذه الحقبة التاريخية. فقد عبر ابن خلدون على احتجاب الخلفاء عن الناس على النحو التالي: كان أول شيء بدأ به في الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب[2].

ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود العامل الأمني وراء اتخاذ معاوية من محاولة اغتياله التي دبرها الخوارج: أمر عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد[3]، وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون في الشام قريباً من أعدائهم الموتورين من الروم، فضلاً عن أعدائهم الموتورين من الإمامية والخوارج المتفرقين في البلاد، وكانوا يرون أنه لا بد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية التي قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز[4]، وقد ذكر المؤرخون أسماء أربعة من مواليه شغلوا له وظيفة الحاجب، وهم سعد، وأبو أيوب، وصفوان[5]، وكان يشترط في الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكي يتمكن أن يعرف من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم، فقد رويت أخبار كثيرة تؤكد ذلك، فمعاوية بن أبي سفيان قال لحصين بن المنذر، وكان يدخل عليه في أخريات الناس:

يا أبا ساسان كأنه لا يحسن أذنك؟ فأنشأ يقول:

وكلُّ خفيفِ السَّاقِ يسعى مشمِّراً ... إذا فتحَ البوابُ بابَك أصبعا
ونحنُ الجلوسُ الماكثون رزانةً ... وحلماً إلى أن يُفتح البابُ أجمعا[6]

وعندما دخل شريك الحارثي على معاوية قال له: من أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين

(1) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 102.
(2) تاريخ ابن خلدون (2/ 49 - 150).
(3) تاريخ الطبري (6/ 65).
(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 271.
(5) إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 103، البداية والنهاية (11/ 465).
(6) البيان والتبيين (2/ 90) إدارة بلاد الشام، ص: 107.

مارأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك ينكر مثلي من رعيته، فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة أعرف وجهك إذا حضرت الوجوه، وأعرف اسمك في الأسماء إذا ذكرت، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجه ما ذكر لي اسمك تجتمع معرفتك[1]. فالحاجب يخبر الخليفة والخليفة هو الذي يأذن أو لا يأذن.

وذات يوم وقف الأحنف بن قيس، ومحمد بن الأشعث بباب معاوية الأول، فأذن للأحنف، ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه فالتفت إليه فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم، ولا يزيد متزيد في خطوة إلا لنقص يجده في نفسه[2].

2 - **الحرس**: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية، خوفاً من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات في الجوامع وكان لا يدخلها إلا ثقاة وحراسه[3]، وكما يبدو أن معاوية لم يكتف باتخاذ الحرس، بل اتخذ المقاصير زيادة في التشدد، وذلك لحماية نفسه من أي اعتداء قد يقع عليه[4]. وقد ذكرت كتب التاريخ أسماء رؤساء الحرس في عهد معاوية وهم: المختار أبو المخارق[5]، ويزيد بن الحارث العبسي[6].

3 - **الشرطة**: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهي غير مسؤولة عن صد أي هجوم خارجي عن الدولة[7]. وقد قام معاوية بتنظيمها وتطويرها في الشام، وقد ذكر المؤرخون أربعة أسماء من الذين عينهم على رئاسة الشرطة وهم: قيس بن حمزة الهمذاني، زمل بن عمرو العذري، الضحاك بن قيس الفهري ويزيد بن الحر العنسي[8].

والشرطة لا يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة فقط بل في الولايات الإسلامية الأخرى، وهم يتبعون الولاة، فهم الذين يختارونهم ويعينونهم، وكان وجودها مهم للدولة والمجتمع،

(1) عيون الأخبار (1/ 90).
(2) العقد الفريد (1/ 68) إدارة بلاد الشام، ص: 108.
(3) إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 111.
(4) المصدر نفسه، ص: 111.
(5) البداية والنهاية (11/ 465).
(6) إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 117، العقد الفريد (4/ 362).
(7) المصدر نفسه، ص: 115.
(8) المصدر نفسه، ص: 117.

فالدولة تعتمد عليها في قمع المتمردين، وفي القضاء على الثورات والاضطرابات، وربما كانت تحل محل الجند في حالة عنايتهم واشتراكهم في الغزوات، وهي للمجتمع، لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهي الجهة الوحيدة المسؤولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض، وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها: فالضحاك بن قيس كلفه معاوية بإبلاغ وصيته لابنه يزيد، وأخذ البيعة له[1].

4 - حسن اختيار الرجال والأعوان: فقد وفق معاوية ﷺ في اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولايتهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عمرو بن العاص السهمي، والمغيرة بن شعبة الثقفي، وزياد بن أبيه الثقفي، ويزيد بن الحر العبسي، والضحاك بن قيس الفهري، وعبد الله بن عامر بن كريز، وغيرهم من القادة المقاتلين أمثال: المهلب بن أبي صفرة، وعقبة بن نافع الفهري، ومالك بن هبيرة، وجنادة بن أمية الأزدي وآخرين، وكان عمرو بن العاص يقول: أنا للبديهة، ومعاوية للأناة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لصغار الأمور وكبارها[2].

وقد ساهم هؤلاء في إدارة الدولة وفتوحها والتصدي لأعدائها، فكان لهم دور كبير ومتميز في ترسيخ وتوطين وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية[3].

5 - استخدام المال في تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب: فقد اعتبر معاوية من أجواد العرب، لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء وجاد بالمال مع المداراة، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال[4].

6 - اتباع سياسة الشدة واللين في الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال: وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية، وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه في ذلك وقال: إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس بسياسة واحدة، إنا إن نشتد جميعاً نهلك الناس ونحرجهم، وإن نلن جميعاً نبطرهم، ولكن تلين وأشتد، وتشتد وألين[5]. ويمثل هذه السياسة ما نسب إلى معاوية ﷺ من أقوال مثل: لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، فإذا لم أجد من السيف بداً ركبته، أي استعملته[6]، وقوله المشهور: لو كان

(1) المصدر نفسه، ص: 123، الأخبار الطوال، ص: 205، 206.
(2) أنساب الأشراف (4/ 1/ 131).
(3) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص: 100.
(4) المصدر نفسه، ص: 100.
(5) أنساب الأشراف (4/ 1/ 84).
(6) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص: 101.

بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إن جبذوها أرسلتها، وإن خلوها جبذتها[1].

7 - اتباع سياسة المنفعة المتبادلة بين بني أمية ورعيتهم: لم يستطع معاوية ﷺ اتباع سياسة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ الراشدة، ولا شك في أن كثرة الأموال بعد اتساع الدولة الإسلامية جعلت كثيراً من المسلمين يتطلعون إلى التمتع بالخيرات التي أخذت تتدفق عليهم، وقد أعرب معاوية عن ذلك بشكل واضح وقال للمسلمين: . . غير أني سلكت طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم[2].

8 - اتخاذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته وجعل الناس يميلون إليهم: وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: أحب الناس إلي أشدهم تحبيباً لي إلى الناس[3]، وأتبعه بعد ذلك الخلفاء الأمويون باستمالة عشرات الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال، فأشادوا بهم وبحقهم في الخلافة وصلاحهم لها ووجوب طاعتهم ونصرتهم، نظراً لأن الشعر كان أهم وسيلة إعلامية في ذلك العصر[4]، ومن الأشعار التي قيلت في هذا الاتجاه ما قاله الأخطل:

تَمَّت جدودُهُم والله فَضَّلَهُمْ ... وجدُّ قومٍ سواهُم خاملٌ نكِدُ
وأنتُمْ أهلُ بيتٍ لا يُوازنُهم ... بيتٌ إذا عُدَّتِ الأحسابُ والعددُ[5]

وقد اهتمّ معاوية بفن الدعاية والإعلام، وأوكله إلى عدد من الرجال يهمهم أمره ويؤيدونه، فكان يكثر أعطيات الشعراء وكذلك شيوخ القبائل، لكسبهم في صفه، ويعطي مجالاً واسعاً لولاته لكي يحققوا بعض المكاسب السياسية والإعلامية والأمنية، فقد كتب زياد والي البصرة في عهد معاوية خمسمائة من مشايخها، وأعيانها في صحابته، ورزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة[6]، فقال فيه حارثة بن بدر الغُدانيّ:

ألا مَنْ مبلِّغٌ عني زياداً ... فنِعمَ أخو الخليفةِ والأميرُ
فأنتَ إمامُ معدلةٍ وقصدٍ ... وحزم حين تحضرُك الأمورُ
أخوك خليفةُ اللهِ ابنُ حرب ... وأنتَ وزيرهُ نعمَ الوزيرُ[7]

(1) أنساب الأشراف (4/ 1/ 21)
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 148).
(3) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص: 102.
(4) المصدر نفسه، ص: 102، تاريخ الطبري (6/ 255).
(5) التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، ص: 134.
(6) تاريخ الطبري (6/ 139).
(7) المصدر نفسه (6/ 139).

وكان معاوية رضي الله عنه يحرص على امتصاص غضب الشعراء بحلمه وعفوه، فعندما هجا يزيد ابن مفرِّغ الحميري بني زياد، عندما كان مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب الترك، فاستبطأه، فأصاب الجند مع عباد ضيق في أعلاف دوابهم فقال ابن مفرغ:

ألا ليتَ اللِّحى عادتْ حشيشاً فنعلفُها خيولَ المسلمينا

وكان عبّاد بن زياد عظيم اللحية، فأنهِيَ شعره إلى عبّاد وقيل: ما أراد غيرك، فطلبه عباد، فهرب منه، وهجاه بقصائد كثيرة، فكان مما هجاه به قوله:

إذا أودَى معاويةُ بنُ حربٍ فَبَشِّرْ شعْبَ قعبك بانصداع
فأشهدُ أنَّ أمَّك لَمْ تباشِرْ أبا سفيانَ واضعةَ القناعِ
ولكنْ كان أمراً فيه لَبْسٍ على وَجَلٍ شديدٍ وارتياعِ

وقوله:

ألا أَبْلِغْ معاويةَ بْنَ حَرْبٍ مغلغلةً من الرَّجُل اليماني
أتغضبُ أن يُقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقالَ أبوك زان
فأشهدُ أنَّ رِحْمَكَ من زيادٍ كرِحْمِ الفيلِ من ولدِ الأتانِ[1]

ولما هجا ابن المفرِّغ عبَّاداً فارقه مقبلاً إلى البصرة، وعبيد الله يومئذ وافد على معاوية، فكتب عباد إلى عبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية، فأنشده إياه، واستأذنه في قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدِّبه ولا تبلغ به القتل[2]... ووقع ابن مفرِّغ بين يدي عبيد الله.. فأمر به فسقي دواء، ثم حمل على حمار عليه إكاف فجعل يطاف به وهو يسلح في ثيابه[3].

وقال ابن مفرِّغ لعبيد الله:

يَغْسِلُ الماءُ ما صنعتَ وقولي راسخٌ منكَ في العظامِ البَوَالي

ثم حمله عبيد الله إلى عباد بسجستان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عباد، فحمل ابن مفرغ من عنده حتى قدم على معاوية فقال في طريقه:

عَدَس ما لعبّادٍ عليكِ إمارةٌ نجوتِ وهذا تحملينَ طليقُ
لعمري لقد نجَّاك من هوّةِ الرَّدَى إمامٌ وحبلٌ للأنامِ وَثِيقُ
سأشكرُ ما أوتيتُ من حسنِ نعمةٍ ومثلي بشكرِ المنعمينَ حقيقُ

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: ركب مني ما لم يركب من مسلم على غير حدث ولا

(1) تاريخ الطبري (6/ 236).
(2) المصدر نفسه (6/ 236).
(3) المصدر نفسه (6/ 236).

جريرة. . . وبعد حوار مع معاوية، قال له معاوية: اذهب فقد عفونا لك عن جرمك، أما لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شيء، فانطلق وفي أي أرض شئت فانزل. فأُنزل الموصل، ثم إنه ارتاح إلى البصرة، فقدمها، ودخل على عبيد الله فأمنه[1]. فقد كان معاوية رضي الله عنه يحرص على كسب الشعراء لصفه، والتحبب إليهم وإكرامهم وعدم محاولة الإساءة إليهم، فقد كانوا أقرب الشبه بالفضائيات في الوقت الحاضر.

9 - جهاز المخابرات: كانت الأجهزة الأمنية الداخلية والخارجية في عهد معاوية قوية جداً، وكانت قدرتها على جمع المعلومات فائقة، وكان معاوية رضي الله عنه يشرف على جهاز المخابرات بنفسه وكان له جهاز سري مربوط به لمراقبة الولاة والرعية، فلم يكن في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل أو أمير جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، بل وصلت عيونه حتى في البلاط البيزنطي وإليك ما يدل على ذلك:

أ - اطلاعه على المراسلات التي بين الحسين وأهل العراق: لما توفي الحسن بن علي اجتمعت الشيعة في دار سليمان بن صرد، وكتبوا إلى الحسين كتاباً بالتعزية في وفاة الحسن، وقالوا في كتابهم: إن الله قد جعل فيك أعظم الخلق ممن مضى، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، والمسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك. فرد الحسين على كتابهم: إني لأرجو أن يكون رأي أخي في الموادعة، ورأيي في جهاد الظلمة رشداً أو سداداً، فالصقوا بالأرض وأخفوا الشخص، اكتموا الهوى، واحترسوا في الإضناء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله[2].

ولقد أثارت تلك الرسائل المتبادلة بين الحسين وأهل الكوفة مخاوف بني أمية في المدينة، فكتبوا إلى معاوية يستشيرونه بشأن الحسين: فكتب إليهم بأن لا يتعرضوا له مطلقاً[3]، وكان معاوية على معرفة بتلك الرسائل والعلاقات الوثيقة التي تربط بين الحسين وبين الكوفيين، ولهذا فقد طلب معاوية من الحسين: أن يتق الله عز وجل وأن لا يشق عصا المسلمين ويذكره بالله في أمر المسلمين[4]، ولقد كان موقف الحسين واضحاً وإعلانه صراحة بقوله: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا[5]، وظل الحسين رضي الله عنه ملتزماً ببيعته وطاعته طوال عهد معاوية[6] رضي الله عنه.

---

(1) المصدر نفسه، (6/ 238).
(2) أنساب الأشراف (3/ 152) مواقف المعارضة، ص: 179.
(3) المصدر نفسه (3/ 152) المصدر نفسه، ص: 179.
(4) المصدر نفسه (3/ 152) المصدر نفسه، ص: 180.
(5) الأخبار الطوال، ص: 220.
(6) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 469.

ب - **قصة معاوية مع المسور بن مخرّمة**: فقد صارح معاوية المسور وقال له: يا مسور ما فعل طعنك على الأئمة[1]؟!، ففيه معرفة معاوية لما يقول كبار الشخصيات في المجتمع الإسلامي فيه.

جـ - **قصة الأسير المسلم عند البيزنطيين**، الذي لطم وجهه بين يدي ملك الروم، وقول الأسير: وا إسلاماه! أين أنت يا معاوية، فوصل ذلك الخبر إلى معاوية[2]. هذه بعض الشواهد التي تدل على قوة جهاز المخابرات التابع للدولة الأموية.

د - **وضع بعض أتباع علي ﷺ بالكوفة تحت المراقبة**: لم يدخل زياد في طاعة معاوية بسهولة وامتنع في بداية أمره على طاعته وتحصن ببلاد فارس، واستطاع معاوية بعد أخذ ورد، إقناع زياد في دخوله طاعته وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله. وسأل زياد معاوية أن يسمح له في نزول الكوفة، فأذن له، فشخص إلى الكوفة، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه، فكتب معاوية إلى المغيرة: خذ زياداً وسليمان بن صرد، وحجر بن عدي، وشَبَث بن ربعي، وابن الكواء، وعمر ابن الحمق بالصلاة في الجماعة، فكانوا يحضرون معه في الصلاة[3]، فقد كان هذا إجراءً احتياطياً من معاوية حتى يكون هؤلاء القوم تحت ناظري والي الكوفة باستمرار، وذلك أن صلح الحسن ومعاوية يوجد له معارضون، ولا يستبعد التفافهم حول بعض رجالات علي ﷺ حسماً منه لمادة الفتنة[4].

10 - **الاهتمام ببناء الجيش الإسلامي**: كان لمعاوية بُعد نظر سياسي تمثل في بناء جيش قوي منذ أن كان والياً على الشام، وتمحور دور هذا الجيش في استتباب الأمن داخل الولاية، ومن ثم القيام بعمليات توسع خارجية قبل وبعد نيله الخلافة[5]. تمثلت في حركة الفتوحات في عصره، وهذا سيأتي تفصيلها في محله بإذن الله تعالى.

11 - **سياسة الموازنات**: على الرغم من نفوذ الكلبيين في الدولة الأموية، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموي - الكلبي، ولكنها اتخذت في عهد معاوية ﷺ منحىً توازنياً ما بين كلب وفهر بصورة خاصة، وقحطان وقيس بصورة عامة، فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة، مؤثرين الإقامة في جنوب الشام (جند الأردن)، فإن الفهريين كان لهم الدور السياسي والإداري البارز فضلاً عن الدور العسكري، حيث شارك

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 151) إسنادها صحيح.
(2) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 489.
(3) الكامل في التاريخ (2/ 458).
(4) مرويات خلافة معاوية، ص: 175.
(5) الدولة الأموية، د. فرست مرعي الدهوكي، ص: 64.

زعيمهم الضحاك بن قيس في صفين، وكان بالإضافة إلى ذلك في طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية في حضّ الناس على البيعة ليزيد[1]، وقد ارتفع الضحاك في السياسة الأموية، وفي أعقاب الدور الأمني الذي شغله في عهد معاوية كقائد على شرطته[2]، والدور السياسي في عهد يزيد، كعامل له على دمشق، مما هيأه من خلال هذا الموقع الهام، لدور أكثر خطورة بعد وفاة معاوية الثاني الذي أوصى بأن: يصلي الضحاك بالناس بدمشق[3].

وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية في الإمساك بزمام الأمور من خلال الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى، دون أن يدع لأي منها مجالاً بأن تتجاوز حدودها المرسومة لها في الدولة، بما في ذلك القبيلة الكلبية الأثيرة. وقد اتسعت دائرة هذه السياسة، لتصبح ظاهرة من ظواهر عهد معاوية ﷺ، حيث نجح معاوية في تحقيق التوازن المنشود داخل قريش (المهاجرة، وغير المهاجرة) فضلاً عن التوازن داخل الأسرة الأموية (بنو حرب، وبنو العاص) واحتواء الثقفيين بعد منحهم إدارة العراق الذي ارتبط تاريخه أو كاد بهذه الأسرة، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التي ضبطها معاوية ﷺ[4].

12 - سياسته مع الأسرة الأموية: لم يأتِ معاوية ﷺ للخلافة بدعم مادي أو معنوي من الأسرة الأموية، وإنما أتاه من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في عهده من الناحية الإدارية أو من الناحية العسكرية، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاة وقادة معاوية الذين استعان بهم[5]، إلا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاءً تاماً، بل استعان بأفراد منها واضعاً نصب عينيه هدفين:

أ - الاستعانة بالأكفاء منهم.

ب - الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية[6].

وقد استطاع معاوية تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يملك من صفات ومؤهلات قيادية فذة[7].

هذه هي أهم الوسائل التي اتخذها معاوية لتوطيد الأمن في دولته ﷺ.

---

(1) الطبقات (6/ 22).
(2) مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، جمهرة النسب، ابن الكلبي (1/ 471).
(3) الطبقات (6/ 39) مؤتمر الجابية، ص: 35.
(4) مؤتمر الجابية، ص: 36.
(5) سيأتي الحديث عن أسمائهم بإذن الله عند التحدث عن الولاة.
(6) الدولة الأموية، فرست مرعي، ص: 179.
(7) المصدر نفسه، ص: 180.

المبحث الثالث
حياة معاوية في المجتمع واهتماماته العلمية

أولاً: حياة معاوية في المجتمع:

1 - بين معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهما:

قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ألست أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلت[1].

2 - مشاجرة في مجلس معاوية:

عن جويرية بن أسماء، أن بسر بن أبي أرطاة نال من علي عند معاوية، وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاه بعصا فشجه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربته، وأقبل على بسر فقال: تشتم علياً وهو جده وابن الفاروق على رؤوس الناس، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك، ثم أرضاهما جميعاً[2].

3 - أنا أحق بهذا منك:

قال معاوية: ما من شيء أحب إلي من عين خرارة في أرض خوّارة، فقال عمرو بن العاص: ما من شيء أحب إلي من أن أبيت عروساً بعقيلة من عقائل العرب، فقال وردان مولى عمرو بن العاص: ما من شيء أحب إليّ من الإفضال على الأخوان، فقال معاوية: أنا أحق بهذا منك، قال: ما تحب فافعل[3].

4 - نعى إليّ نفسي:

كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب زِرّ بن حبيش - أو أيمن بن خُرَيم - كتاباً لطيفاً ورمى به إلى الكتب وفيه:

إذا الـــرجـــال ولـــدت أولادهـــا ... واضـطـربـت مـن كـبـر أعْـضـادُهـا
وجـعـلـت أسـقـامـهـا تـعـتـادهـا ... فـهـي زروع قـد دنـا حـصـادهـا

فلما وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب، قال: نعى إلي نفسي[4].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 253).
(2) المصدر نفسه (6/ 253).
(3) المصدر نفسه (6/ 254).
(4) المصدر نفسه (6/ 254).

5 - نصيحة معاوية لشاعر من بني أمية:

قال معاوية ﷺ، لعبد الرحمٰن بن الحكم بن أبي العاص: يا ابن أخي، إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء فتعُرّ الشريفة[1]، والهجاء فتعر كريماً، وتستثير لئيماً، والمدح، فإنه طعمة الوقّاح، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك[2].

6 - لا تقل داري في البصرة، ولكن قل: البصرة في داري:

ذكر أن رجلاً سأل معاوية أن يساعده في بناء دار باثني عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية: أين دارك؟ قال: بالبصرة. قال: وكم اتساعها؟ قال: فرسخان في فرسخين، قال: لا تقل داري بالبصرة، ولكن قل: البصرة في داري[3].

7 - علمت أن أكله سيُورِثه داءً:

ذكر أن رجلاً دخل بابن معه، فجلسا على سماط معاوية فجعل ولده يأكل أكلاً ذريعاً، فجعل معاوية يلاحظه، وجعل أبوه يريد أن ينهاه عن ذلك فلا يفطن، فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدُّخول، فقال له معاوية: أين ابنك التِّلقامة[4]؟ قال: اشتكى. قال: قد علمت أن أكله سيورثه داء[5].

8 - وإنك لتلحظ الشعرة في لقمتي:

روي أن معاوية قال للأعرابي: ارفع الشعرة من لقمتك، فقال: وإنك لتلحظ الشعرة في لقمتي، والله لا أكلت معك طعاماً[6].

9 - إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها:

نظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة، فجعل يزدريه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها[7].

10 - يا بنية إنه زوجك الذي أحله الله لك:

تزوج عبد الله بن عامر هند بنت معاوية، فلمّا أدخلت عليه بالخضراء، أرادها عن نفسه فتمنَّعت عليه وأبت أشد الإباء، فضربها فصرخت، فلمّا سمع الجواري صوتها صرخن وعلت أصواتهنّ، فسمع معاوية فنهض إليهنّ، فاستعلمهن ما الخبر، فقلن: سمعنا صوت سيدتنا

---

(1) عرّه: أساء إليه وساءه.
(2) تاريخ الطبري (6/ 254).
(3) البداية والنهاية (11/ 453).
(4) التلقام، والتلقامة: كبير اللُّقم.
(5) البداية والنهاية (11/ 453).
(6) المنتخب والمختار، ص: 559.
(7) المصدر نفسه (11/ 453).

فصِحنا. فدخل فإذا هي تبكي من ضربه، فقال لابن عامر: ويحك مثل هذه تضرب في مثل هذه الليلة؟ ثم قال له: اخرج من ههنا، فخرج وخلا بها معاوية فقال لها: يا بُنَيَّةُ، إنه زوجك الذي أحله الله لك، أو ما سمعتِ قول الشاعر:

من الخَفِرات[1] البيض أمّا حرامُها فصعبٌ وأمّا حِلُّها فذلولُ

ثم خرج معاوية من عندها، وقال لزوجها: أدخل فقد مهدت لك خُلُقها ووطَّأته، فدخل ابن عامر، فوجدها قد طابت أخلاقها، فقضى حاجته منها[2] رحمهم الله تعالى.

11 - هل يصح قول معاوية: إن الكريم طروب:

عن محمد بن عامر، قال: لام معاوية عبد الله بن جعفر على الغناء، فدخل يوماً على معاوية ومعه بُديح[3]، ومعاوية واضع رجلاً على رجل، فقال عبد الله لبديح: إيها[4] يا بديح، فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبد الله: مه يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: إن الكريم طروب[5]، هذا الخبر أورده البلاذري[6] بنحوه، وأورده ابن عبد ربه[7]، مع بعض الزيادات المنكرة[8].

وهذه الرواية الضعيفة يردها ما أخرجه الطبراني بإسناد حسن، من طريق كيسان مولى معاوية قال: خطب معاوية الناس فقال: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ نهى عن تسع، وأنا أنهاكم عنهن: النوح، والشَّعر، والتبرُّج، والتصاوير، وجلود السباع، والغناء، والذهب، والحِرُّ والحرير[9].

وكان ﷺ ينهى عن الاستماع إلى الغناء وينكر ذلك على من يعرف به، وكان عامله على المدينة ابن الحكم شديداً على أهل الدعارة والفسوق، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولايته[10].

---

(1) الخفرات: جمع خَفِرة من الخفر، وهو شدة الحياء.
(2) البداية والنهاية (11/ 464).
(3) بديح المليح، من موالي عبد الله بن جعفر.
(4) إيه: كلمة استزادة واستنطاق، واستلطاف. الفيروزآبادي، القاموس، ص 1604.
(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 82.
(6) أنساب الأشراف (4/ 27) مرويات خلافة معاوية، ص: 83.
(7) العقد الفريد (6/ 21، 22) مرويات خلافة معاوية، ص: 83.
(8) مرويات خلافة معاوية، ص: 83.
(9) المعجم الكبير (19/ 373) إسناده حسن.
(10) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 94.

12 - قضاء ديون السيدة عائشة ﷺ :

كان معاوية ﷺ يهتم بالسيدة عائشة ويقضي عنها ديونها، فعن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشرة ألف دينار[1]. وقال عروة: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمْست حتى فرَّقتها[2].

13 - الاهتمام بحوائج الناس:

كان معاوية ﷺ يشفق على نفسه أن يكون احتجابه أحياناً عن المسلمين ذنباً يحاسب عليه، فلما سمع حديث النبي ﷺ: «**من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره**»، جعل معاوية على حوائج الناس رجلاً يبلغه بها، كي لا يغيب عنه شيء منها[3]، وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة، يكتب إلى أمير المؤمنين[4].

14 - تأثر معاوية ﷺ بموت الصالحين:

حين توفي ابن لعتبة بن أبي سفيان، جاء ناس إلى معاوية يعزونه فيه قال: إن موت غلام من آل أبي سفيان قبضه الله، ليس بمصيبة، إنما المصيبة كل المصيبة لموت أبي مسلم الخولاني وكريب بن سيف الأنصاري[5].

15 - اهتمام معاوية بالمساجد والعيون:

اهتم معاوية بن أبي سفيان بالمسجد الحرام وأمر بتوسعته وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال، وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتم بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة في المسجد الجامع بالفُسطاط عام 53هـ، وطلا جدرانه بالجص، وزخرف بنيانه، وبنى له أربع منارات شامخة وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببناء المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم في الليل في وقت واحد[6].

ووسع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة، ثم قام زياد بن أبيه فبناه وزاد فيه وأحكمه وفرشه بالحصى، وكان يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(3) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 273، نقلاً عن البداية والنهاية.
(4) تاريخ الطبري (6/ 254).
(5) تاريخ دمشق (1/ 227) نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 53.
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 347.

ثماني عشرة مئة درهم. واتخذ فيه مقصورة جدّدها خالد بن عبد الله القسري في أثناء ولايته على العراق، ثم قام عبيد الله بن زياد وزاد في المسجد الجامع وفرشه بالحصى[1]، وزاد زياد بن أبيه في المسجد بالبصرة زيادة كبيرة، وبناه بالآجر والجص، واستعمل الأساطين في البناء، وسقفه بالساج وبنى منارته بالحجارة، وبنى في البصرة المساجد الكثيرة، ثم قام عبيد الله بن زياد فزاد في المسجد الجامع[2]. واهتم معاوية بالمرافق العامة في الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب في المدينة، وأجرى في الحرم المكي عيوناً[3] وأنشأ آبار المياه على الطرقات، فربط بين أجزاء مملكته ربطاً محكماً[4].

16 - سباق الخيل في عهد معاوية رضي الله عنه :

ويعد معاوية رضي الله عنه من أوائل الخلفاء الذين أرسوا تقاليد سباقات الخيل في تاريخنا الإسلامي، فقد كان يقيم سباق الخيل في دمشق، حيث يشترك فيه فرسان من جميع أطراف الدولة، وكان هؤلاء يدخلون الحلبة وهم يقولون الشعر في الفخر بأنفسهم وخيلهم، وعند انتهاء السابق كان الخليفة يقدم جوائز ثمينة للفائزين[5].

17 - إطعام الحجاج والصائمين:

أنشأ أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه دار المراجل بمكة، والتي كان يطبخ فيها طعام الحجاج وطعام الصائمين من الفقراء في شهر رمضان المبارك[6] وقفاً في سبيل الله.

18 - الله أقدر عليك منك عليه:

رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوءة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر[7].

فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه لابنه يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم: العفو عند المقدرة، هذا الخلق الذي يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة،

---

(1) المصدر نفسه، ص: 347، فتوح البلدان، ص: 399 - 340.
(2) فتوح البلدان، ص: 426، 427، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 348.
(3) أخبار مكة (2/ 227) الأزرقي، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 341.
(4) الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، ص: 25.
(5) التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ص: 94، الرفق بالحيوان، د.سلامة الهرفي، ص: 49.
(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 26.
(7) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ الإسلامي (17/ 23).

ولقد ذكَّره بقدرة الله جل وعلا عليه ليحطَّ من تعاظمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده[1].

ثانياً: اهتماماته العلمية:

كان معاوية ﷺ يشجع الولاة والعلماء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حضارية، وشهد عصره نهضة في التفسير وعلوم القرآن والفقه والعقيدة، وتألق فيه نجم عديد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم، كابن عباس وأبي هريرة، وابن عمر وغيرهم، وكانت العلوم الرئيسة هي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه واللغة العربية، واهتم معاوية ﷺ بغيرها من العلوم أيضاً منها:

1 - اهتمام معاوية بالتاريخ:

كان معاوية ﷺ الراعي الذي عمل على أول تدوين باللغة العربية للتاريخ بمعناه العام لا على أنه المغازي النبوية وقصص الأنبياء، ولا على أنه الأنساب ، وأيام العرب، ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة، وسير الملوك والحروب، وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على الملوك[2]، فقد كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والآثار وأنواع السياسات[3].

وقد استدعى معاوية عبيدة بن شربة - وهو أحد علماء التاريخ البارزين في بلاد اليمن - إلى دمشق، وسأله عن أخبار القدماء وملوك العرب والعجم، وأمر معاوية كتّابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد الله بن شربة: كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين[4]، ولم يكن عبيدة هذا هو العالم الوحيد الذي استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات وصيرها كتباً، بل إن كثيراً من الأخباريين أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وفدوا على معاوية أيضاً[5]، والدرس البالغ الأهمية يظهر في أهمية التاريخ للساسة والحكام والملوك والزعماء، فالسياسي المتوعب لحركة التاريخ وسننه ينجح في ميدان عمله أكثر من غيره، فهناك علاقة متينة بين التاريخ والسياسة.

---

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 24).
(2) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 454، التاريخ العربي (1/ 95).
(3) مروج الذهب (2/ 41)، الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 455.
(4) المصدر نفسه (2/ 85)، المصدر نفسه، ص: 455، التعليم في العصر الأموي، ص: 117 انتصار السبتي.
(5) التاريخ العربي والمؤرخون (1/ 95)، الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 455.

2 - اهتمام معاوية بالشعر واللغة:

كان معاوية ﷺ يدرك أهمية الشعر، تواقاً له، ولم يغب عن حسه أهميته في الدعاية السياسية للدولة، وكان يهتم بتربية أبنائه وأبناء أخيه على تعلم ومعرفة وتذوق الشعر، فقد كتب إلى زياد أن أوفد إلي ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شيء إلا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً، فقال له: ما منعك من تعلم الشعر؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني كرهت أن أجمع في صدري مع كلام الرحمٰن كلام الشيطان، فقال معاوية: اغرب، فوالله ما منعني في الفرار يوم صفين إلا ابن طنابة حيث قال:

أبتْ لي عِفَّتي وأبى بلائِي ... وأخذي الحَمْدَ بالثمن الربيحِ
وإعطائي على الإعدامِ مالي ... وإقدامي على البطل المشيحِ
وقولي كلما جشأتْ وجاشتْ ... مكانَكِ تُحمدي أو تستريحي[1]

ثم كتب إلى أبيه أن روِّه الشعر، فرواه حتى كان لا يسقط عنه شيء منه[2]، وكان معاوية ﷺ يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قَتَلَ السَّفَاهَةَ مثلُ حلم ... يعودُ بِهِ على الجهلِ الحليمُ
فلا تسْفَهْ وإن مُلِّئتَ غيظاً ... على أحدٍ فإن الفحشَ لومُ
ولا تقطعْ أخاً لَكَ عند ذنب ... فإنَّ الذَنبَ يغفرُهُ الكريمُ[3]

ومن اهتمام معاوية بالشعر حفظه له، فقد دخل ذات يوم على معاوية في مجلسه ابن أبي محجن الثقفي فقال له معاوية: أبوك الذي يقول:

إذا متُّ فادفنِّي إلى جنب كَرْمةٍ ... تُرَوِّي عظامي بعد موتي عُرُوقُها
ولا تدفنِّي بالفلاةِ فإنَّني ... أخافُ إذا ما متُّ أن لا أَذُوقها

فقال ابن أبي محجن: لو شئت ذكرتُ أحسن من هذا من شعره قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسأل الناسَ: مالي وكثرته ... وسائل القومَ ما حزمي وما خلقي
القومُ أعلمُ أنِّي من سراتِهِم ... إذا تَطِيشُ يدُ الرِّعديد الفَرِقِ
قد أركبُ الهَوْل مسدولاً عساكره ... وأكتُم السِّرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ

وهو القائل:

إن يكنْ ولَّى الأميرُ فَقَدْ ... طابَ منه النَّجْلُ والأَثَرُ

(1) البداية والنهاية (11/ 426).
(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 457.
(3) البداية والنهاية (11/ 442).

فيكم مستيقظٌ فَهِمٌ قُلْقُلانٌ حَيَّةٌ ذكرُ
أحمدُ اللهَ إليكَ فما وصلةٌ إلا ستنبترُ[1]

وكان الشاعر مسكين الدارمي من المقربين من معاوية وابنه، فقد سأل معاوية عنه عطارد بن حاجب، وقال له: ما فعل الدارمي الصبيح الوجه الفصيح اللسان - يعني مسكيناً؟ - فقال: صالح يا أمير المؤمنين، قال: أعلمْهُ أني قد فرضت له، فله شرف بالعطاء وهو في بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليفعل، فإنّ عطاءه سيأتيه، وبشّره بأن قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خِنْدِف[2]، وهذا الشاعر هو القائل في معاوية ﷺ:

إليكَ أميرَ المؤمنين رَحَلْتُها تُثيرُ القَطَا ليلاً وَهُنَّ هُجُودُ
على الطائرِ الميمونِ والجدُّ صاعدٌ لكلِّ أناسٍ طائرٌ وجدودُ
إذا المنبرُ الغربيُّ خلّى مكانَهُ فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يزيدُ[3]

ويقال: إن معاوية أمر مسكين الدارمي أن ينظم قصيدة في البيعة ليزيد، وبعد أن أنشد قصيدته وكان بنو أمية وأشراف الناس حاضرين، لم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة... ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته[4]، ويعتبر مسكين الدارمي من شعراء عهد معاوية وممن ترك أبياتاً جميلة منها قوله:

وإذا الفاحشُ لاقى فاحشاً فهناكُم وافق الشنُّ الطَبَقْ
إنما الفُحش ومن يعتادهُ كغراب السَّوءِ ما شاء نَعَقْ
أو حمارِ السَّوْءِ إن أشبعتَه رَمَحَ النَّاسَ وإن جاعَ نَهَقْ
أو غلامِ السَّوءِ إن جوَّعْتَه سَرَقَ الجارَ وإن يُشْبَع فَسَقْ
أو كَغَيْرَى رَفَعَتْ من ذَيْلِها ثم أرخَتْه ضِراراً فامَّزَق
أيها السَّائلُ عمَّن قد مضى هل جديدٌ مثلُ ملبوسٍ خَلَقْ[5]

وهو القائل:

ناري ونارُ الجارِ واحدةٌ وإليه قبلي تُنَزَّل القِدْرُ
ما ضرَّ جاراً لي أُجاورُهُ أَلَّا يكون لبابِهِ سَتْرُ

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 424).
(2) تاريخ دمشق (20/ 39، 40).
(3) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 544).
(4) الأغاني للأصفهاني نقلاً عن الحياة العلمية في العراق، ص: 110.
(5) الشعر والشعراء (1/ 544).

أعـمـى إذا مـا جـارَتـي بَـرَزَتْ حـتـى يُـغَـيِّـبَ جـارَتـي الـخِـدْرُ[1]

وكان معاوية رضي الله عنه يستنكر اللحن، فحين أرسل زياد بن أبيه والي العراق ابنه عبيد الله إلى معاوية بن أبي سفيان لحن في كلامه، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكن قوِّم من لسانه[2].

ولما ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث، فقال: إنّ أبونا لما مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فأفأ زياد فقال: الذي أضعت من لسانك أضرُّ عليك مما أضعت من مالك[3].

وقد برز في البصرة في عهد معاوية كثير من النحويين، فكان أبو الأسود الدؤلي أول من وضع أساس النحو في البصرة، وكان أول من استَنَّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحرف الجر والرفع والنصب والجزم[4]، وألف كتاباً في النحو[5]وكان شاعراً، ومن أشهر أبياته قوله:

يـا أيـهـا الـرجـلُ الـمـعـلِّـمُ غـيـرَهُ هـلَّا لـنـفـسـك كـانَ ذا الـتَّـعْـلـيـمُ؟
تصفُ الدواءَ لذي السِّقام وذي الضَّنا كـيـمـا يـصـحَّ بـه وأنـتَ سـقـيـمُ
ونـراكَ تُـصْـلِـحُ بـالـرَّشَـادِ عـقـولـنـا أبـداً وأنـتَ مـن الـرَّشـاد عـديـمُ
ابدأ بـنـفـسـك فـانـهَـهـا عـن غـيّـهـا فـإذا انـتَـهَـتْ عـنـه، فـأنْـتَ حـكـيـمُ
فـهـنـاك يـسـمـعُ مـا تـقـول ويُـهـتدى بـالـقـولِ مـنـكَ ويـنـفـعُ الـتَّـعـلـيـمُ
لا تـنـهَ عـن خُـلـقٍ وتـأتـي مـثـلَـهُ عـارٌ عـلـيـك إذا فـعـلـتَ عـظـيـمُ[6]

وله في الزهد المبرأ من الكسل كقوله:

وإذا طـلـبـتَ مـن الـحـوائـجِ حـاجـةً فـادعُ الإلـهَ وأحـسِـنِ الأعـمـالا
فـلـيـعـطـيَـنَّـك مـا أرادَ بـقـدرةٍ فـهـو الـلـطـيـفُ لِـمَـا أرادَ فِـعـالا
ودعِ الـعِـبَـادَ وشـأنَـهُـمْ وأمـورَهُـم بِـيَـدِ الإلـه يـقـلِّـبُ الأحـوالا[7]

(1) الشعر والشعراء (1/ 545).
(2) البيان والتبيين (2/ 210)، الحياة العلمية في العراق.
(3) البيان والتبيين (2/ 222).
(4) طبقات النحويين، ص: 21 الزبيدي، الحياة العلمية في العراق، ص: 104.
(5) الشعر والشعراء (2/ 729).
(6) الأدب الإسلامي وتاريخه (2/ 17) عابد الهاشمي.
(7) الأدب الإسلامي وتاريخه (2/ 17)، ديوان أبي الأسود الدؤلي.

3 - اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية:

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لا بد - للإفادة من ذلك التراث - من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا تراثاً تقليدياً تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية[1]، وقد كان بعض هذه الترجمات حافزاً على الاهتمام بالعلوم التجريبية، وربما العكس صحيحاً أحياناً. . ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين، ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة - على نحو ما سنرى بإذن الله - كانت بداياتها من عهد معاوية، فقد كان سباقاً إلى رعاية العلوم وأهلها، فأنشأ بيتاً للحكمة، أي: مركزاً للبحث، ومكتبة، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى في أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به[2].

ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصراني طبيب معاوية في نقل بعض معارف الطب إلى العربية[3]، على أن بداية الجهود الحقيقية في الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية، فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الإسكندرية في مصر وتفصحوا بالعربية كذلك، فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي، وكان هذا أول نقل في الإسلام[4]، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية، وهو أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، وترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة الإسلام، ففي دمشق إذاً أنشئت أول دار للكتب في العالم الإسلامي[5]. وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين في الطب في عهد معاوية بحيث أصبحت النسبة: طبيب لكل 534 خمسمائة وأربعة وثلاثين فرداً، وهذه النسبة تمّ أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والي البصرة حينما طعن في يده جمع مائة وخمسين طبيباً ليداووه[6]، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفاً تقريباً[7].

---

(1) تاريخ سوريا، فيليب حتي، (1/ 132) الدولة الأموية، شاهين، ص: 459.
(2) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 348.
(3) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص: 1717.
(4) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 460.
(5) خطط الشام (4/ 23 - 24)، الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 460.
(6) البداية والنهاية (11/ 261).
(7) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 255.

المبحث الرابع
الخوارج في عهد معاوية

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم في معركة صفين، وكانوا قبلها من أشد أنصار علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وحضروا معه موقعة الجمل وصفين، ولكنهم انشقوا عليه بعدها، ورفضوا التحكيم، وحاول علي إقناعهم وردهم إلى الجماعة ولكنهم تشبثوا بموقفهم، وبالغوا في شقاقهم وتطرفوا، حتى عاثوا في الأرض فساداً، مما جعل علياً يقاتلهم ويقضي على معظمهم في معركة النهروان.

وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام، وعلى جماعة المسلمين، أما هم فيسمون أنفسهم الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، على أن لهم الجنة، يشيرون بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]. ويسمون: المحكمة، لأنهم قالوا: لا حكم إلا لله، وكان يطلق عليهم أيضاً: الحرورية، نسبة إلى قرية حروراء التي انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على علي[1].

ولما كان سبب خروجهم هو قبول علي التحكيم بينه وبين معاوية رضي الله عنهما، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية في الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة[2].

المبدأ الأول: أن الخلافة ليست وقفاً على قريش كما يذهب أهل السنة[3]، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلاً لها حتى ولو كان عبداً حبشياً، ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها، أو يقبل التحكيم، وفي ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته في شطرها الأول، ثم تبرؤوا منه وكفَّروه في بقية عهده، وأما علي فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته بل كفروه[4]، وكذلك لم يعترفوا بخلافة معاوية وبني أمية[5]، وكفروهم، كما كفروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبا

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 454.
(2) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء، ص: 57.
(3) الدولة الأموية في المشرق، محمد النجار، ص: 87.
(4) مقالات الإسلاميين (1/ 156، 89).
(5) الدولة الأموية في المشرق، ص: 87.

موسى الأشعري. وعلى الجملة كفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين، واعتبروا دارهم دار كفر، وأباحوا أموالهم ودماءهم، حتى قتل أطفالهم[1].

المبدأ الثاني: الذي قامت عليه نظرية الخوارج، هو وجوب الخروج على الإمام الجائر[2]، وهنا وجه الخطورة في حركتهم كلها، فلو اقتصروا على الخلاف النظري في الرأي، أو الجدال بالحجة والبرهان، لكان الأمر أهون، ولكنهم شهروا السلاح في وجه مخالفيهم، بدءاً من علي بن أبي طالب ﷺ، وحاولوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة، وكما تطرفوا إلى أبعد حد في الرأي والمذهب، فقد تطرفوا في اللجوء إلى القوة والعنف، وكبدوا الأمة وأنفسهم خسائر فادحة، وعكروا صفو الدولة الأموية، وكانوا من أشد مناوئيها[3]. وقد تحدثت عن الخوارج بنوع من التفصيل في كتابي: «سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شخصيته وعصره»[4].

ذكرنا قبل قليل أن خطورة حركة الخوارج تكمن في لجوئهم إلى الثورة والعنف، ولشدة إيمانهم بمبادئهم فقد ضحوا في سبيلها بأرواحهم وأبدوا كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام في حروبهم مع الدولة الأموية، وكانوا أشبه بالفرق الانتحارية، فكثيراً ما كانت أعداد قليلة منهم تهزم جيوشاً جرارة للدولة، ولو أن هذه الشجاعة والإقدام والتضحية اتجهت اتجاهاً سليماً، ووحد الخوارج جهودهم مع جهود الدولة في محاربة أعداء الإسلام لربما تغير وجه التاريخ الإنساني كله بشكل جذري، والحقيقة أنهم لم يكونوا طلاب دنيا، ولم يجروا وراء المادة، وإنما أخلصوا للفكرة التي آمنوا بها وملكت عليهم جوانب حياتهم[5]، وأفنوا أنفسهم، وكلفوا الأمة الكثير من الجهد والوقت والمال والأرواح، وإذا كان الخوارج قد خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكفروه وحاربوه، فيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف وبغضهم لها أشد، فقد شهروا السلاح في وجهها من أول لحظة، فثاروا على معاوية ﷺ قبل أن يغادر الكوفة عام 41هـ[6].

---

(1) مقالات الإسلاميين (1/ 159، 189).
(2) النظريات السياسية الإسلامية، ص: 57.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 455.
(4) سيرة أمير المؤمنين علي، ص: 633.
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 458.
(6) المصدر نفسه، ص: 458، تاريخ خليفة، ص: 203 - 204.

أولاً: حركات الخوارج في الكوفة:

1 - حركة فروة بن نوفل الأشجعي:

قال الطبري في حادث عام 41هـ: وفيها خرجت الخوارج التي اعتزلت أيام علي عليه السلام بشهرزور[1] على معاوية[2]، وقال: حدثت عن زياد، عن عوانة، قال: قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة، فقالت الحرورية[3]، الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهر[4]، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع صاحبهم فروة بن نوفل - - وكان سيد القوم - واستعملوا عليهم عبد الله بن أبي الحر[5] - رجلاً من طيِّئ - فقاتلوهم فقتلوا[6].

وفروة بن نوفل الأشجعي هو القائل قبيل معركة النهروان: والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً، لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتباعه، وانصرف في خمسمائة فارس[7]. وذكر ابن حجر رواية هامة تبين موقف معاوية رضي الله عنه من الخوارج بعد توليه الخلافة، وفيما يلي نص رواية ابن حجر: . . . فرجع الناس فبايعوا معاوية ولم يكن لمعاوية هَمٌّ إلا الذين بالنهروان[8]، فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه، حتى بقي منهم ثلاثمائة أو نيف[9]، وهم أصحاب النخيلة[10].

---

(1) شهرزور: كورة واسعة تقع بين إربل وهمذان، أهلها أكراد، وهي في العراق اليوم. معجم أماكن الفتوح، ص: 741.

(2) تاريخ الطبري (6/ 81).

(3) الحرورية: هم الخوارج، وحروراء قرية بظاهر الكوفة نزل فيها الخوارج الذين خالفوا علياً رضي الله عنه، فنسبوا إليها، معجم البلدان (2/ 245).

(4) تاريخ الطبري: (6/ 81).

(5) كان ممن اعتزل قتال علي يوم النهروان، أنساب الأشراف (4/ 164).

(6) تاريخ الطبري (4/ 164).

(7) مرويات خلافة معاوية، ص: 182، نقلاً عن تاريخ الطبري.

(8) أي: الخوارج.

(9) النيف: من واحد إلى ثلاثة، القاموس المحيط، ص: 111.

(10) سموا بذلك لأنهم قتلوا في النخيلة، معجم البلدان (2/ 185)

2 - حركة المستورد بن عُلَّفة التميمي[1]:

تحدث الطبري في تاريخه عن حركة المستورد بن عُلَّفة التميمي بإسهاب وتفصيل بعكس أكثر المصادر التي تناولت هذا الحدث، حيث تحدث خليفة[2] بن خياط عن هذه الحركة باختصار شديد، وقد أطال الطبري الحديث عن حركة المستورد بن عُلَّفة التميمي، ولعل ذلك إشارة منه لأهميتها، وأهمية هذه الحركة تعود إلى كون أصحابها يمثلون الامتداد الطبيعي لفكر خوارج النهروان الذين قاتلهم علي ﷺ، إذ إن معظم المنتسبين إلى هذه الحركة كانوا في خندق واحد في معركة النهروان، وهذا الأمر هو الذي دفع المغيرة بن شعبة والي الكوفة إلى اللجوء إلى أنصار علي ﷺ، وخاصة الذين شاركوا في معركة النهروان من أمثال معقل بن قيس الرياحي الذي كان أحد قادة علي يوم النهروان[3]، وتكليفه قيادة الحملة المتوجهة لقتال الخوارج، لأن أنصار علي ﷺ هم أخبر الناس بالخوارج وأشدهم عليهم، وما جاء من مرويات في تاريخ الطبري قدمت لنا تفاصيل هامة عن الحدث: منها:

أ - موقف الخوارج من استشهاد علي ﷺ، ويستفاد هذا من قول الخوارج: . . لا يقطع الله يميناً علت قذاله[4] بالسيف، قال: فأخذ القوم يحمدون الله على قتله[5].

ب - أسباب خروجهم على جماعة المسلمين: ويستفاد هذا من قول الخوارج: فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا في القعود، وولاتنا ظلمة، وسُنَّة الهدى متروكة، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم، ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن في مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة[6].

جـ - سياسة المغيرة بن شعبة ﷺ مع الخوارج: ويستفاد هذا مما يلي: وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى ويقال له: إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج، وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، ويحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون[7].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 87 إلى 92).
(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 189.
(3) المصدر نفسه، ص: 190.
(4) القذال: مؤخرة الرأس، القاموس المحيط 774.
(5) تاريخ الطبري (6/ 88).
(6) المصدر نفسه (6/ 89).
(7) المصدر نفسه (6/ 89).

وقال المغيرة لقبيصة بن الدمون: الصق لي بشيعة علي، فأخرجهم مع معقل بن قيس، فإنه كان من رؤوس أصحابه، فإذا بعثت بشيعته الذي كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعاً، استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجرأ عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبل هذه المرة[1]. قال المغيرة: يا معقل بن قيس، إني قد بعثت معك فرسان أهل مصر، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا عليها بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول في الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم[2].

د - حركة حيان بن ظبيان السلمي: كانت هذه الحركة عام 58هـ وكانت في ولاية عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، ففي أثناء ولايته خرجت الطائفة الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم في السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن علفة، فظفر بهم فاستودعهم السجن، فلما مات خرجوا من السجن[3]، وقام بحركة مضادة للخلافة وكان رئيسهم حيان بن ظبيان السُّلَمي، فبعث إليهم والي الكوفة جيشاً فقتلوا الخوارج جميعاً[4].

ثانياً: حركات الخوارج في البصرة:

1 - حركة يزيد الباهلي وسهم الهجيمي:

في عام 41هـ خرج في ولاية عبد الله بن عامر لمعاوية، يزيد بن مالك الباهلي، وخرج معه سهم بن غالب الهجيمي، فأصبحوا عند الجسر، فوجدوا عبادة بن قرص الليثي أحد بني بجر - وكانت له صحبة - يصلي عند الجسر، فأنكروه فقتلوه ثم سألوا ابن عامر الأمان فأمنهم وكتب إلى معاوية: قد جعلت لهم ذمتك، فكتب إليه معاوية: تلك ذمة لو أخفرتها لا سُئلت عنها، فلم يزالوا آمنين حتى عزل ابن عامر[5].

وفي عام 46هـ خرج سهم الهجيمي والخطيم وهو يزيد ابن مالك الباهلي لما تولى زياد، فأما سهم فخرج إلى الأهواز فأحدث وحكَّم ثم رجع فاختفى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه. وأما الخطيم فإن زياداً سيره إلى البحرين، ثم أذن له فتقدم،

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن مرويات خلافات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 192 (تاريخ الطبري (6/ 105).
(2) تاريخ الطبري (6/ 106).
(3) تاريخ الطبري (6/ 326).
(4) البداية والنهاية (11/ 313).
(5) الكامل (2/ 454).

فقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو الباهلي[1]: اضمنه، فأبى وقال: إن بات بعيداً عن بيته أعلمتك، ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة في بيته فأمر به فقتل، وألقي في باهلة[2].

2 - حركة قريب الأزدي وزحاف الطائي:

في عام 50هـ خرج قريب الأزدي وزحّاف الطائي بالبصرة وهما ابنا خالة، وزياد بالكوفة وسمرة[3] على البصرة، فأتيا بني ضُبيعة، وهم سبعون رجلاً، وقتلوا منهم شيخاً، وخرج على قريب وزحّاف شباب من بني علي وبني راسب فرموهم بالنَّبل، وقتل عبد الله بن أوس الطاحيّ قريباً وجاء برأسه واشتد زياد على المنبر فقال: يا أهل البصرة والله لتكفُنّني هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوهم[4].

3 - خبر عروة بن أُدية الخارجي:

في سنة 58هـ اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبراً: عروة بن أديّة[5]، وكان سبب قتله أن ابن زياد قد خرج في رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عروة، فأقبل على ابن زياد يعظه، وكان مما قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: 128-130]. فلمّا قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعة، فقام وركب وترك رهانه. فقيل لعروة: ليقتلنّك، فاختفى، فطلبه ابن زياد فهرب وأتى الكوفة فأخذ وقدم به على ابن زياد فقطع يديه ورجليه[6]. . ثم دعا به فقال: كيف ترى؟ قال: أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها[7]، بسبب اعتناقها مذهب والدها[8]. وذكر المبرد في كتابه (الكامل في اللغة) سببين هامين كان لهما أثر كبير في مقتل عروة بن أدية:

الأول: تكفير هذا الخارجي لعثمان وعلي ﷺ.

---

(1) مسلم بن عمرو الباهلي: والد قتيبة الفاتح الكبير.
(2) الكامل (2/ 477).
(3) سمرة بن جندب الفزاري: صحابي، مات بالبصرة سنة 58هـ، الاستيعاب (2/ 653).
(4) الكامل في التاريخ (2/ 482).
(5) تاريخ الطبري (6/ 230).
(6) الكامل في التاريخ (2/ 517).
(7) أنساب الأشراف (4/ 387، 388) تاريخ الطبري (6/ 230).
(8) مرويات خلافة معاوية ص: 204.

والثاني: إقدامه على مساعدة أخيه مرداس بن أدية على الخروج[1].

4 - حركة مرداس بن أدية:

وفي عام 58هـ خرج مرداس بن أُديَّة بالأهواز، وكان ابن زياد قبل ذلك حبسه فيمن حبس من الخوارج، فكان السجان يرى عبادته، واجتهاده، وكان يأذن له في الليل فينصرف، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن، وكان صديق لمرداس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج فعزم على قتلهم إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم، وقال: أرسلوا إلى أبي بلال في السجن فليعهد فإنه مقتول، فسمع ذلك مرداس، وبلغ الخبر صاحب السجن، فبات بليلة سوء إشفاقاً من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذي كان يرجع فيه إذا به قد طلع، فقال له السجان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: نعم، قال: ثم غدوت! قال: نعم، ولم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسببي، وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج، ثم دعا مرداس، فلما حضر وثب السجان - وكان ظئراً[2] لعبيد الله - فأخذ بقدمه ثم قال: هب هذا، وقص عليه قصته، فوهبه له وأطلقه[3].

وقد أشار البلاذري إلى أن عزم عبيد الله بن زياد على قتل من في السجن من الخوارج كان بسبب إقدام بعضهم على قتل أحد الحرّاس[4]. ثم إن مرداس خاف ابن زياد فخرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز، فكان إذا اجتاز به مال لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يرد الباقي، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشاً عليهم «أسلم بن زرعة الكلابي» سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميمي، وكان الجيش ألفيْ رجل، فلمّا وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أن لا يقاتلوه فلم يفعلوا، ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة، فقالوا: أتردُّوننا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحاب أسلم رجلاًمن أصحاب أبي بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدؤوكم بالقتال. فشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدّة رجل واحد فهزموهم فقدموا البصرة، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين، لا خيرَ فيك. فقال: لأن تلومني وأنا حي خير من تثني عليّ وأنا ميت، فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أما أبو بلال وراءك! فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم فانتهوا[5]. فهذه أهم حركات الخوارج في عهد معاوية.

---

(1) الكامل في اللغة (3/ 1098) نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، في تاريخ الطبري، ص: 205.
(2) أي زوج مرضعته، لسان العرب (4/ 515).
(3) تاريخ الطبري (6/ 231).
(4) أنساب الأشراف (4/ 181).
(5) الكامل في التاريخ (2/ 518).

ثالثاً: أهم الدروس والعبر والفوائد:

أهم الدروس والعبر والفوائد في محاربة معاوية للخوارج:

1 - إن الناظر في سلوك الخوارج زمن معاوية يجد أن خروجهم في ذلك العهد كان يستهدف إزعاج نظام حكم بني أمية وإضعافه، دون أن يكون لهم أمل في القضاء عليه[1].

2 - كانت بعض هذه الحركات مقتصرة على المجموعات المنسحبة من النّهروان والتي ظلت مشتتة في الأرياف، وعدم وجود ما يشير إلى مشاركة الخوارج المقيمين في الكوفة فيها، وهو ما يؤكد عدم حصول تحوّل في موقف هؤلاء رغم التغيير الذي طرأ على السلطة[2].

3 - ومن الملاحظات ما يخصّ الكوفيين الذين أبدى العديد منهم حماساً في محاربة الخوارج، وإذا كنا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من علي قد لعبت دوراً في دفع هؤلاء إلى المشاركة في قمع الثائرين، فإننا لا نستبعد أن تكون الرغبة الملحّة في إنهاء الحروب والانقسامات والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها في دفع الكوفيين إلى مساعدة معاوية في القضاء على هؤلاء المعارضين، رغم يقينهم أنَّهم سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم و سيفقد مصرهم المكانة التي كان يتمتع بها في خلافة علي ﷺ [3].

4 - كان معاوية ﷺ على وعي تام بحقيقة المعارضة الخارجيّة و موقفها من السلطة ومن شخصه بالذّات، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفّه وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدي لهم بالقوة[4].

5 - لم يتردد المغيرة بن شعبة في محاربة الخارجين على السلطة بالشرطة والجيش، ولم يقتصر استعمال القوة على الثائرين بل شمل حتى الذين بلغه أنهم ينوون الخروج، مثل: معين بن عبد الرحمٰن المحاربي، وحيان بن ظبيان السّلمي وغيرهما، وهو ما يدل على أن المغيرة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل المصر، ويتجسس عليهم وينزل عقوباته بهم تبعاً لما يصله عنهم من أخبار[5].

6 - أهم وأخطر ما قام به المغيرة ﷺ هواستعماله أنصار علي ﷺ ضد الخوارج مستفيداً من العداوة التي كانت بينهم، وهو عمل استفادت منه الدولة الأموية على المدى

---

(1) الخوارج في العصر الأموي، نايف معروف، ص: 130.
(2) حركة الخوارج، لطيفة البكّائي، ص: 60.
(3) المصدر نفسه، ص: 60.
(4) المصدر نفسه، ص: 66.
(5) المصدر نفسه، ص: 65.

القريب والبعيد، فعلى المدى القريب، حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجي في الكوفة، وأسكت المعارضين الموجودين فيها دون أن يكلف الدولة خسارة تُذكر، . . فضلاً عن أنه شغل الكوفيين عن معارضة الدولة الأموية وأعطاها بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها[1].

أما على المدى البعيد فقد عمَّق المغيرة الهوّة بين الخوارج والشيعة وأبعد إمكانية التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة، مجنباً بذلك الدولة الأموية خطر مواجهة معارضة موحدة وقوية، غير أن ما قام به المغيرة تجاه المعارضة في الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه، مع بعض الاجتهادات التي رأى أنّها تخدم الدولة أكثر[2]. . . وأما أنصار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وخاصة الزعماء منهم، فقد عملت الدولة الأموية على تقريبهم وكسبهم، ولذلك سلك المغيرة سياسة اللين معهم وهو ما ضمن الهدوء في الكوفة طيلة ولايته عليها[3].

7 - مع تولي زياد البصرة: تصاعدت عمليات القمع ضد الخوارج فبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثل بالمقتولين فيصلبهم في الأماكن العامة، أو في دُورهم، وقد شمل التمثيل الخارجين من الرجال والنساء، ورغم أن التمثيل يعد من الأعمال البشعة التى نهى رسول الله ﷺ عن القيام بها حتى مع الكفّار، فإن زياداً استعمله مع المسلمين رجالاً ونساءً ليروِّع بقية السكان ويلزمهم الهدوء، ولم تكن العقوبات المسلطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتمثيل والتسيير والإقامة الجبرية، بل شملت كذلك العطاء، وقد تجاوز زياد في هذا المجال من سبقه من الحكّام، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلات الديوان[4].

8 - أقحم زياد بأعماله العنف في سياسة الدولة وجعله إحدى ركائزها، واعتبر أن مصلحتها تقتضي استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها[5].

9 - أدّت سياسة زياد - العنيفة - إلى إخماد تحرّكات الخوارج، وفرضت هيبة الدولة على الجميع، وحوّلت القبائل إلى طرف له دور في سياستها، ومنحتها مهمة توفير الأمن داخل المصر بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الدّية والتأطير العسكري، إلا أنّها أضعفت التضامن القبلي وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجين على السُّلطة، وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقبتهم أحياناً، ولئن نجح زياد في إخماد تحرّكات المعارضين وزرع الرّعب في نفوس بقية سكان العراق وتحويلهم من مقاتلة يتمتعون بقدر كبير من الحرية إلى

(1) حركة الخوارج : لطيفة البكّائي، ص: 65.
(2) المصدر نفسه، ص: 66.
(3) المصدر نفسه، ص: 66.
(4) صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحي شعبان، ص: 99، الخوارج، لطيفة البكّائي، ص: 70.
(5) حركة الخوارج لطيفة البكّائي، ص: 71.

رعية خاضعة كلياً لأجهزة الدّولة، فقد فشل في خنق إرادة الخروج لدى قسم كبير من الخوارج، وهو ما يفسر عودة الانتفاضات في ولاية ابنه عبيد الله[1].

10 - تجاوز عبيد الله بن زياد والده في قمع الخوارج بفرضه العقوبات على الجميع المعلن والمسر على حدّ السواء، وإذا كان القتل هو عقوبته المفضلة فقد كان يعمد أحياناً إلى سجن البعض منهم، كما كان يسمح أحياناً أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر مع فرض الإقامة الجبرية عليهم وتكليف من يقوم بعملية المراقبة التي كانت غالباً ما تنتهي بقتلهم لمخالفتهم الأوامر.

ولم يكن ابن زياد ينتظر خروج الحروريَّة عليه، بل كان يبحث عنهم مستعملاً كل الوسائل بما في ذلك تشجيع السّكان بالمال لتتبّع تحرّكات أبناء قبائلهم ونقلها إليه أو إلى أعوانه، وقد أدّت هذه الطريقة إلى إلقاء القبض على العديد ممّن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف معه أو يُشتبه فيه ذلك، ولكنها فسحت في الوقت نفسه المجال أمام الوشاية وتلفيق التّهم بالباطل[2]، فأجّجت بذلك الحزازات القبلية القديمة، وخلقت خلافات جديدة بين القبائل[3].

11 - السمات العامة لحركات الخوارج في خلافة معاوية ﷺ كالتالي:

أ - اتسمت بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم.

ب - كانت أشبه ما تكون بعمليات انتحار جماعي، لأنهم يخرجون بفئات قليلة لا تلبث أن تستأصل.

جـ - افتقارهم إلى قيادة واعية ومحنكة تستطيع استثمار شجاعتهم وفروسيتهم لتحقيق أهدافهم.

د - تكرارهم لأخطاء بعضهم وعدم استفادة كل حركة من تجربة سابقتها.

هـ - استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة في عودتهم، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة.

و - اختلاط الدوافع الدينية التي دعتهم للخروج - بزعمهم - مع دوافع العصبية الجاهلية في حركاتهم، والمتمثلة بخروج بعضهم ثأراً لمن قتل من أصحابهم.

ز - شعورهم بالغربة داخل المجتمع المسلم، ونفورهم منه، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار.

---

(1) حركة الخوارج، ص: 71.
(2) المصدر نفسه، ص: 74.
(3) المصدر نفسه، ص: 74.

ح - عدم بحثهم عن أرض جديدة لنشر دعوتهم، واقتصارهم على بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة والبصرة.

ط - سلوكهم طريقة منكرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي طريقة الاستعراض، ومرد ذلك إلى الجهل بالدين وقلة العلم، لأن كثرة العبادة ليست دليلاً على فقه الرجل، وإلا لكان الخوارج أفقه أهل زمانهم[1]، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: **«يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»**[2]

ي - افتقارهم لطول النفس والصبر في مشروعهم التغييري.

12 - شفاعة أبي بكرة الثقفي لبعض الخوارج عند معاوية ونصيحته له:

في عام 41هـ وثب حمران بن أبان على البصرة، فأخذها وتغلب عليها، فبعث معاوية إليه جيشاً ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكرة الثقفي إلى معاوية، فسأله في الصفح عنهم والعفو، فعفا عنهم وأطلقهم وولّى على البصرة بسر بن أبي أرطأة[3]. وقد قال معاوية لأبي بكرة: هل من عهد تعهده إلينا؟ قال: نعم، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيّتك وتعمل صالحاً، فإنك قد تقلَّدت عظيماً، خلافة الله في خلقه، فاتق الله، فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشك أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عمّا كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنما هي محاسبة وتوقيف، فلا تُوثرن على رضا الله شيئاً[4].

13 - استخدام العواطف في حرب الخوارج:

خرج حوثرة بن وداع بن مسعود الأسدي على الدولة الأموية، فدعا معاوية أبا حوثرة فقال له: اخرج إلى ابنك فلعله يرق إذا رآك فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بابنك فلعلّك إذا رأيته كرهت فراقه؟ فقال: أنا إلى طعنة بيد كافر برمح أتقلّب فيه ساعة أشوق مني إلى ابني. فرجع أبوه فأخبر معاوية بقوله، فسيَّر معاوية إليهم عبد الله بن عوف الأحمر في ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج، فدعا ابنه إلى البراز، فقال: يا أبة لك في غيري سعة. وقاتلهم ابن عوف وصبروا، وبارز حوثرة عبد الله بن عوف فطعنه ابن عوف فقتله وقتل أصحابه إلا خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك في جمادى الأخرة سنة إحدى وأربعين، ورأى ابن عوف بوجه حوثرة أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم على قتله، وقال:

---

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 210.
(2) البخاري مع الفتح (12/ 203).
(3) البداية والنهاية (11/ 149).
(4) البداية والنهاية (11/ 150).

قتلتُ أخا بني أسدٍ سفاهاً ... لعمرُ أبي فما لُقّيتُ رُشدي
قتلتُ مُصلّياً مِحياءَ لَيْلٍ ... طويلَ الحزنِ ذا برٍّ وقَصْدِ
قتلتُ أخا تُقىً لأنالَ دنيا ... وذاك لشِقوَتي وعِثارِ جَدّي
فهبْ لي توبةً يا ربِّ واغفرْ ... لما قارفتُ من خطأ وعَمْدِ[1]

رابعاً: من قصائد الخوارج في عهد معاوية رضي الله عنه:

1 - ما قاله معاذ بن جوين بن الحصين في سجن المغيرة بن شعبة:

ألا أيُّها الشَّارون قد حانَ لامرىءٍ ... شرى نفسَه لله أنْ يترحَّلا
أقمتُم بدارِ الخاطئين جهالة ... وكلُّ امرىءٍ منكم يُصادُ ليقتلاَ
فشدّوا على القوم العُداة فإنما ... أقامتكم للذبح رأياً مضَلَّلا
ألا فاقصدوا يا قوم للغايةِ التي ... إذا ذكرتْ كانتْ أبرَّ وأعْدَلا
فيا ليتني فيكم على ظهرِ سابحٍ ... شديد القصيرى دارعاً غيرَ أعْزَلا
ويا ليتني فيكم أُعادي عَدوَّكم ... فيسقيني كأس المنية أوّلا
يعزّ عليَّ أن تخافوا وتُطردوا ... ولمَّا أُجرِّدُ في المُحِلّين مُنصلا
ولمَّا يفرقُ جَمْعَهُمْ كلُّ ماجدٍ ... إذا قلت ولّى وأدبر أقبَلا
مُشيحاً بنصْلِ السيفِ في حمس الوغى ... يرى العبرَ في بعض المواطن أمثلا
وعزَّ عليَّ أن تصابوا وتُنفصوا ... وأُصبحُ ذا بتٍّ أسيراً مكبَّلا
ولو أنني فيكم وقصدو لكم ... أثرتُ إذاً بين الفريقَيْنِ قَسْطَلا
فيا رُبّ جمعٍ قد فَللتُ وغارة ... شهدت وقرْنٍ قد تركت مُجدَّلا[2]

2 - ما قال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة:

عندما انتصر مرداس أبو بلال بن أدية من بني ربيعة وكان في أربعين رجلاً على جيش لعبيد الله بن زياد، حيث قال:

أألفا مؤمنٍ منكم زعمتُمْ ... ويقتلهُمْ بآسَكَ[3] أربعونا
كذَبْتم ليس ذاك كما زعمتُمْ ... ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
هي الفئة القليلةُ قد علمتُمْ ... على الفئةِ الكثيرةِ يُنْصَرونا[4]

(1) الكامل في التاريخ (3/ 450).
(2) الكامل في التاريخ (2/ 450).
(3) آسك : بلد في نواحي الأهواز ، معجم البلدان (1/ 53).
(4) تاريخ الطبري (6/ 232، 231).

وفي رواية أخرى نسبت قصيدة إلى عيسى بن فاتك قال فيها:

فلمَّا أصبحوا صلّوا وقاموا ... إلى الجُرْد العِتاق مسوَّمينا[1]
فلمَّا استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا[2]
بقية يومهم حتَّى أتاهُمْ ... سوادُ الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم ... بأن القومَ ولوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسَكَ أربعونا[3]

المبحث الخامس
النظام المالي في عهد معاوية ﷺ

أولاً: مصادر دخل الدولة:

1 - الزكاة:

وهي أهم مكونات النظام المالي الإسلامي، وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة، إذ يقول عنها سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5]، كما أجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة، ومن ذلك اتفاق صحابة رسول الله ﷺ على قتال مانعيها في عهد أبي بكر الصديق ﷺ[4].

وقد أسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها، فقد كان رسول الله يجمعها ويقوم على تفريقها، وكذلك فعل أبو بكر وعمر، أما في عهد عثمان لما كثرت الأموال فقد رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام[5]، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشي ونحوها، فقد استمرت الدولة في جبايتها وإنفاقها، وقد ورد عن أبي بكر وعثمان ابن عفان أنهما كانوا يأخذون زكاة المال من عطاء الرجل[6]. ثم اختلف بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا[7]؟ وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة، أما الأموال الظاهرة

---

(1) الجرد العتاق: الخيل الجياد الكريمة، مسومين: معلمين.
(2) ذوو الجعائل: جنود بني أمية المأجورون.
(3) أدب السياسة في العصر الأموي، ص 220، نقلاً عن تهذيب الكمال (1/ 105).
(4) المغني والشرح الكبير (2/ 434)، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 64.
(5) بدائع الضائع في ترتيب الشرائع للكساني، كتاب: الزكاة (2/ 820).
(6) الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص: 372، 373.
(7) المصدر نفسه، ص: 504 إلى 511.

ظلت تحصلها الدولة، وهذا يدل على سبب نقص حصيلة الزكاة بشكل عام في العصر الأموي، لامتناع جماعة من الناس عن دفعها للولاة، وتفريقها بمعرفتهم، عدا عهد عمر بن عبد العزيز الذي ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة[1].

كما أعاد كذلك أخذ الزكاة من العطاء[2]، أي بالخصم عند المنبع، وهذا يعكس تعاظم دور الزكاة كأحد مكونات الإيرادات العامة إبان عهد عمر بن عبد العزيز، ولا يعني هذا إغفال دورها الهام طيلة العصر الأموي، فبالرغم من عدم توافر أرقام عنه إلا أن الدلائل تشير إلى كبر أهميتها وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسين من قطاعات الاقتصاد الأموي، هما قطاع الزراعة وقطاع التجارة خاصة في ظل نظام العشور[3].

ومنها أيضاً وجود ديوان خاص يسمى ديوان الصدقات[4]، وهو الديوان الذي يتولى النظر في أمور الزكاة والصدقات التي تجبى من القادرين والمتمكنين مالياً، ليتم توزيعها على مستحقيها في الوجوه الشرعية التي ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[5]، وأشار إليه الجهشياري أول مرة في خلافة هشام بن عبد الملك، ويذكر أن: إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة هشام بن عبد الملك. وقد يعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة لعدم تسجيل مقادير تلك الصدقات، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها في الحال إلى مستحقيها[6]، وبصفة عامة يمكن القول إن نظام الزكاة كان مطبقاً في العهد الأموي وفقاً للأسس الشرعية الخاصة به، وإن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان في عهد عمر بن عبد العزيز، حيث وثق الشعب في الدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام كواقع عملي، فسارع إلى دفع الزكاة إليها، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة، فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نمواً ملحوظاً في حصيلة الزكاة[7].

2 - الجزية:

ما يؤخذ من أهل الذمة، وهي ضريبة على الذمي المستوفي لشروطها مقابل الدفاع عنه، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية، عملاً بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا

(1) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 104، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 65، عصام الجفري.
(2) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص: 426.
(3) الخراج، ص: 271، 272.
(4) النظم الإسلامية، أنور الرفاعي، ص: 82، 83.
(5) الدواوين في العصر الأموي، نجم السعودي، ص: 61.
(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 66.
(7) المصدر نفسه، ص: 66.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

وهي ثابتة في السنة لما قاله المغيرة بن شعبة لترجمان عامل كسرى: . . فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤتوا الجزية[1]. وهي ثابتة أيضاً بالإجماع[2].

ولم يضف الأمويون شيئاً يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية، ويمكن القول بأن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، فمن حيث ضوابطها تمثلت في أربعة هي: تحديد الشريحة التي تؤخذ منها الجزية متمثلة في الذكور العقلاء البالغين[3]، ثم تحديد الفئات المعفاة منها: وهم: الصبيان والنساء، المرضى المزمنون، العبيد، المجانين، العميان، الشيوخ، الرهبان الذين لا مورد لهم[4]، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يساراً وإعساراً، حيث كانت تفرض على الفرد الغني (48) درهماً سنوياً، وعلى المتوسط (24) درهماً سنوياً، وعلى ما دون ذلك (12) درهماً سنوياً بشرط أن يكون ذا حرفة[5].

وأما عن تصنيفها فيمكن تقسيم الجزية وفق المعيارين التاليين:

أ - معيار المسؤولية: وطبقاً له تنقسم الجزية إلى فردية وجماعية، فالجزية الفردية هي التي تفرض على كل ذمي مستوفٍ لشروطها في صورة مبلغ محدد يسقط عنه حالة إسلامه، أما الجماعية أو المشتركة فكانت تتم بوضع مبلغ إجمالي معين على أهل القرية أو المدينة، ثم يتولون هم توزيعه بين أفرادهم، ومثالها من عهد النبي ﷺ: صلحه ﷺ لأهل أذرح على مائة دينار في كل رجب[6]، وكان غالب الجزية في العصر الأموي من هذا النوع[7].

ب - معيار النقدية والعينية: وطبقاً له انقسمت الجزية إلى ثلاثة أقسام: جزية نقدية، جزية عينية، جزية مشتركة. وكانت جميع أصناف الجزية معمولاً بها في العصر الأموي، ولم يوجد ما يشير إلى الخروج عن ذلك، خاصة وأن الشريعة الإسلامية تقتضي بالالتزام بعقود الصلح، والوفاء بها، لكن هذا لم يمنع من خروج بعض الولاة أحياناً عن الضوابط الشرعية[8].

---

(1) فتح الباري (6/ 317).
(2) المغني، كتاب الجزية (10/ 567).
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 66.
(4) الأحكام السلطانية، ص: 144.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 67.
(6) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 71.
(7) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 67.
(8) المصدر نفسه، ص: 68، ومن أراد التوسع فلينظر: تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 294.

وبالنسبة لحجم غلة الجزية ونسبتها إلى إجمالي الإيراد الكلي للدولة، فهذا مما يصعب تحديده، لكن هناك مؤشرات تدل على عظم حجم إيراد الجزية وما يتضح من الدور الكبير الذي قامت به الدولة الأموية في نشر الإسلام في بلدان كثيرة تم فتحها وفرض الجزية على من لم يسلم من أهلها[1].

3 - الخراج:

كبقية المصادر المالية للدولة التي كان لعمر بن الخطاب الريادة في تنظيمها، فقد استفادت الدولة الأموية من تنظيم عمر له، إذ سارت في أغلب أقاليمها عليه، إلا ما طرأ من تعديلات سوف يتم التعرض لها[2]، وللخراج معنى خاص: وهو إيراد الأراضي التي افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام، كما فعل عمر بأرض السواد من العراق والشام[3]، والخراج كما قال ابن رجب الحنبلي: لا يقاس بإجارة ولا ثمن، بل هو أصل ثابت بنفسه لا يقاس بغيره[4]، وكان للخراج أهمية كبرى بالنسبة للدولة الأموية، وكانت غلة الخراج في منطقة السواد على سبيل المثال في عهد ابنه عبيد الله سنة (54هـ - 66هـ) بلغت 135 مليون درهم[5]، وأما منطقة الجزيرة والشام: فقد استمر الخراج في هذه المنطقة وفقاً لما وضعه معاوية بن أبي سفيان، الذي فرض ضرائب على أهل المدن ذات شقين، شق منه جزية والآخر خراج، وهو كما يلي:

أ - على أهل قنسرين حوالي مليون وخمسمائة ألف درهم.

ب - على الأردن ستمائة ألف درهم.

جـ - على فلسطين حوالي ستمائة ألف درهم[6].

وقد حدثت بعض الانحرافات في تحصيل الخراج في عدة صور أهمها:

أ - فرض الخراج على أرض مستثناة منه بنص عقود الصلح[7]، فقد حدث ذلك في عهد يزيد ابن معاوية (60 - 64هـ) حيث فرض الخراج على أرض السامرة[8]، بالأردن وفلسطين.

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 71.

(2) المصدر نفسه، ص: 73.

(3) الخراج لأبي يوسف ص: 24، 25، اقتصاديات الحرب، ص: 215.

(4) الاستخراج لأحكام الخراج ص: 40، اقتصاديات الحرب، ص: 215.

(5) الأحكام السلطانية ص: 175، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 74.

(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 76.

(7) فتوح البلدان، ص: 162، 163.

(8) السامرة: قوم من اليهود وهم صنفان: الدستان والكوشان، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 78.

ب - استخدام العنف في تحصيل الخراج، في بعض الأقاليم - باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز - حيث استخدمت الشدة في تحصيل الإيرادات بأنواعها[1].

ج - تحميل نفقات جباية الخراج على الممول، ومن تلك النفقات: قيمة الورق الذي يكتب عليه مقادير الخراج، قيمة إيجار المستودعات التي يتم تخزين حصيلة الخراج العينية فيها، أجرة الجابي الذي يقوم بالجباية وبقية نفقات تحصيل الخراج[2]، وقد حدث ذلك خاصة في إقليم العراق، وكان قبل عهد عمر بن عبد العزيز، فلما ولي الخلافة أبطلها ثم عادت بعد موته[3].

وكان للخراج في عهد الدولة الأموية ديوان خاص به، يسمى ديوان الخراج: وهو الذي يتولى النظر في جباية ضريبة الخراج، ويقوم بجمعها وتسجيلها، ووضع تقديرات لها، لأنها أعظم واردات الدولة[4].

وكان الأمويون قد فصلوا بين الولاية والجباية وعينوا مسؤولين عنها لكي يحصروا المسؤولية، وقد ذكرت المصادر قائمة بأسماء الذين أسندت إليهم مهمة الجباية والإشراف على أعمال الديوان، فمعاوية ﷺ عين على خراج دمشق: سرجون بن منصور[5]، وعلى خراج فلسطين: سليمان المشجعي[6]، وعلى خراج حمص: ابن أثال النصراني[7]، وفي خلافة يزيد بن معاوية استمر على الديوان: سرجون بن منصور، كما بقي عليه طوال حكم معاوية الثاني، ومروان بن الحكم، وعبد الملك، حتى عزله[8]. وقد أولى معاوية ﷺ وولاته في الأقاليم الأرض ومن عليها عناية متزايدة، فاصطلح البطائح وهي أرض واسعة مغمورة بالمياه، بقطع القصب وعلب الماء بالمسنيات، مما أدّى إلى عمارة البلاد وزيادة الوارد العام بمقدار خمسة آلاف ألف درهم، وراعى معاوية حالة السكان وسعى لتطمينهم والتخفيف عن كاهلهم بمجموعة من الإجراءات يتعلق بعضها بضريبة الخراج ذاتها، وبعضها الآخر يتعلق بالقائمين على الضريبة[9].

---

(1) الخراج لأبي يوسف، ص: 269، 270.
(2) المصدر نفسه، ص: 186، 187، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 78.
(3) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص: 456.
(4) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 177.
(5) الجهشياري، ص: 24.
(6) الجهشياري، ص: 26، إدارة بلاد الشام، ص: 178.
(7) تاريخ اليعقوبي (2/ 223).
(8) إدارة بلاد الشام في العهد الراشدي والأموي، ص: 178.
(9) الخراج د. غيداء خزنة كاتبي، ص: 239.

ومن ناحية أخرى، فقد عمل معاوية على إنصاف دافعي الضريبة باختيار عماله ومتابعته لهم، وإن كانوا من المقربين، فقد عزل ابن أم الحكم وهو عبد الرحمٰن بن عبد الله الثقفي - وهو ابن اخته - لأنه اشتد في أمر الخراج، ولم يقبل من عامل خراجه جباية الخراج قبل موعده الموجود[1].

وفي الفترة الأموية تكثر الإشارة إلى استعمال الأعاجم في الخراج، وصلاحهم لذلك لأسباب عبر عنها زياد بن أبيه بوضوح، منها: معرفتهم بأمور الخراج ودورهم في إعمار الأرض[2]، حيث يقول: وينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج[3]، ودعا زياد إلى مراعاة الدهاقين والإحسان إليهم: أحسنوا إلى الدهاقين[4]، فإنكم لن تزالوا سماناً ما سمنوا[5].

4 - العشور:

هي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية، سواء داخلة أو خارجة من أرض الدولة، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: العاشر، أي: الذي يأخذ العشور[6]، وأول من وضعها في الإسلام هو عمر بن الخطاب ﷺ، وقد فرضها على الحربي بنسبة العشر، وعلى الذمي نصف العشر، وعلى المسلم ربع العشر[7]، وقد استمر هذا النظام في العهد الأموي وفق القواعد التالية:

أ - إعفاء الحد الأدنى لرأس المال، والذي قدر بالنسبة للمسلم بمائتي درهم[8]، أما بالنسبة للحربي والذمي فقد اختلف فيه[9].

ب - لا تحصل العشور إلا مرة واحدة في السنة.

جـ - يشترط لتحصيل العشر من النعم التي للمسلم أن تكون سائمة.

---

(1) الخراج د. غيداء خزنة كاتبي، ص: 239.
(2) المصدر نفسه، ص: 262.
(3) المصدر نفسه، ص: 262.
(4) الدهقان: شيخ القرية العالم بالزراعة، وما يصلح للأرض من شجر.
(5) الضرائب في السواد في العصر الأموي، للدوري، ص: 48، الخراج، ص: 263.
(6) الخراج لأبي يوسف، ص: 271، اقتصاديات الحرب، ص: 223.
(7) الأموال لأبي عبيد، ص: 475، 476.
(8) الخراج لأبي يوسف، ص: 276.
(9) الأموال لأبي عبيد، ص: 477.

د - لا تؤخذ العشور من عبد ولا مكاتب ولا مضارب ولا بضاعة، وإنما من رب المال نفسه[1].

هـ - أن يكتب للتاجر سند بالمبلغ الذي دفعه، وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا في السنة التالية[2].

و - أن لا يتم تفتيش التاجر ولا تعنيفه[3].

ز - أن من ادعى ديناً يستغرق ما معه من التجارة، صدق إن كان مسلماً، وإن ارتاب في أمره استحلفه (على خلاف ذلك)[4]، وأما الذمي فأقرب الأقوال فيه أن يشهد له شاهدان من المسلمين حتى يعفى[5].

ح - أن العشور التي تأخذ من المسلمين هي الزكاة فلا يجمع على المال زكاة وعشور[6].

ط - أن غير المسلم إذا مر بما يوصف بالمالية عندهم وليس بمال عند المسلمين كالخمر والخنزير ونحوها، يقومه أناس من غير المسلمين، ويضاف إلى قيمة ما معه من تجارة ويؤخذ منه العشور[7].

وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن العشور كانت تشكل جزءاً مهماً في إيرادات الدولة، من ذلك ما لمسه ابن الزبير من نقص في موارد الدولة حينما منع تحصيل العشور لمدة عام واحد، مما حمله على التراجع عن ذلك القرار[8].

5 - الصوافي:

هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفيء، كما فعل رسول الله ﷺ، أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس أو باستطابة نفوس الغانمين، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ[9].. ثم أقطعت أجزاء منها إلى بعض من كان يتولى استثمارها، على أن

(1) الخراج لأبي يوسف، ص: 274.
(2) الأموال لأبي عبيد، ص: 475، التطور الاقتصادي ص: 80.
(3) الخراج لأبي يوسف، ص: 275، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 80.
(4) الأموال لأبي عبيد، ص: 480، 481.
(5) المصدر نفسه، ص: 479، التطور الاقتصادي، ص: 80.
(6) الخراج لأبي يوسف ص: 273.
(7) المصدر نفسه، ص: 273.
(8) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 80.
(9) الأحكام السلطانية، ص: 192.

يؤدي لبيت المال ما عليها، وأول من أقطع عثمان بن عفان ﷺ [1]، وذلك بدافع زيادة غلتها، وقد اشترط على من يقطعه إياها حق الفيء[2]، فبلغت غلتها آنذاك خمسين مليون درهم[3].

وانتبه معاوية بن أبي سفيان للصوافي في وقت مبكر، وكتب إلى الخليفة عثمان سأله أن يقطعه إياها، ليقوى بها على ما وصف في كتابه يقول ابن عساكر: حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها. ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له، وسأله أن يقطعه إياها ليقوى بها على ما وصف له وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً[4]، يضاف إلى تلك المزارع، مزارع وأراضي بني فوقا الذين لا وراث لهم، فأخذ معاوية ما يليهم[5]. ولما أفضى الأمر إليه، جعل هذه الأراضي حبساً[6] على فقراء أهل بيته والمسلمين[7]، وأشار المؤرخ اليعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضي، وضياع الملوك في الشام والجزيرة واليمن والعراق خالصة لنفسه عندما أفضى الأمر إليه[8].

فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، واعتبر بذلك: أول من كان له الصوافي في جميع أرجاء الدنيا[9]، وهذه الإشارة من اليعقوبي تلفت الانتباه إلى الالتباس الواضح في لغتها، فقد ذكرت الصوافي في الجزيرة واليمن، علماً بأن عمر بن الخطاب كان قد أصفى مجموعات خاصة في أراضي السواد وأراضي الشام لم يدخل فيها صوافي الجزيرة واليمن[10].

كما أشار اليعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضي خالصة لنفسه، فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، وبمقارنة هذا النص، بنص ابن عساكر عن الموضوع نفسه، يظهر مدى المبالغة في تلك الرواية، يقول ابن عساكر عن تلك الأراضي: فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرّها على حالها ثم جعل من بعده حبساً على فقراء أهل بيته

(1) فتوح البلدان، ص: 273.
(2) الأحكام السلطانية، ص: 193.
(3) المصدر نفسه، ص: 193.
(4) تهذيب تاريخ دمشق (1/ 184) الخراج د.غيداء، ص: 307.
(5) الخراج، د. غيداء، ص: 307.
(6) الحبس: الوقف.
(7) تهذيب تاريخ دمشق (1/ 84) الخراج، غيداء، ص: 307.
(8) تاريخ اليعقوبي (2/ 232 - 234).
(9) تاريخ اليعقوبي (2/ 234).
(10) المعرفة والتاريخ (1/ 434) الخراج، غيداء، ص: 307.

والمسلمين، أي أن معاوية لم يتصرف فيها ابتداء، بل تركها على حالها[1]، ولكن يبدو أن هناك ضرورات سياسية نشأت في الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد من التنظيم والسعي لخدمة مصالح الدولة، ومن هذه الضرورات محاولة إقامة توازن قبلي في بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة في هذا المجال[2].

ولقد أسيء فهم هذا الإجراء وفسر بعض المؤرخين - كاليعقوبي - موضوع مصالح الدولة بأنه يعني مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية[3]، ولا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال في تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحدة الأمة، فكان ينصرف وفق ما يراه مناسباً للصالح العام[4]، ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف، وقد أمر معاوية بإعادة مسح للصوافي في أمصار الدولة الأموية، وأضاف أراضي واسعة بعد العثور على سجل الضياع الساسانية[5] وأصبحت تحت تصرف معاوية المباشر فكان يسد منها بعض حالات العجز في النفقات العامة، فقد بلغت غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهم[6] وكذلك فعل بصوافي أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فدك اصطفاها لنفسه ثم أقطعها لمروان بن الحكم[7]، وظلت كذلك طيلة العهد الأموي، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذي أعادها للملكية العامة وشجع القطاع الخاص على استثمارها[8]، كما رد فدك لبيت المال ووضع ما يأتي منها في أبناء السبيل، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده[9]، كما أمر باستثمار أراضي الصوافي حين كتب إلى واليه على العراق: انظر ما قبلكم من أرض الصافية، فأعطوه حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها، فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين، ولا تبتزن قبلك أرضاً[10]، ونلاحظ من هذا النص اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر الصوافي مما يدل على أهميته في موارد الدولة. . لكن أمر الصوافي عاد إلى ما كان عليه الأمر بعد عهد عمر بن عبد العزيز[11].

---

(1) الخراج، غيداء، ص: 308.
(2) المصدر نفسه، ص: 308.
(3) المصدر نفسه، ص: 309، دراسات في حضارات الإسلام، ص: 46.
(4) الخراج، ص: 311 غيداء خزنة كاتبي.
(5) الخراج، ص: 311 غيداء خزنة كاتبي.
(6) الإدارة في العصر الأموي، نجدة خماش، ص: 197.
(7) فتوح البلدان، ص: 46.
(8) المصدر نفسه، ص: 46، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 82.
(9) فتوح البلدان، ص: 24 - 48.
(10) واسط في العصر الأموي، ص: 406.
(11) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 82.

6 - خمس الغنائم:

تعرّف الغنيمة: «ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة»[1]، وقد نص عليها القرآن الكريم، وفي العصر الأموي ازدادت حركة الفتوحات، وبالتالي زادت الغنائم كأحد موارد بيت المال، وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمري بالنسبة للغنائم والأراضي المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيئاً لمجموع المسلمين مع ضرب الخراج عليها[2]، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مصادر أخرى كنظام خمس الركاز، ومال من لا ورث له، إذ ظل في العصر الأموي على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، إضافة إلى أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جداً بالنسبة لغيرها من المصادر[3].

ثانياً: النفقات العامة:

1 - النفقات العسكرية:

حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام في أرجاء المعمورة، ولذلك اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي اتساعاً كبيراً، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلاقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها، وتتضح معالم النفقات العسكرية في العصر الأموي من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية[4].

أ - رواتب الجند: ويشرف عليها ديوان الجند، وتجمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة 20هـ[5]، وقد بقي هذا الديوان على الأساس نفسه من حيث: حفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم، وأنسابهم ومقدار أعطياتهم[6]، وقد عمل معاوية بن أبي سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد في أعطياتهم، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة، وكان أمير المؤمنين معاوية: يتفقد أحوال القبائل، كجزء من سياسته في حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية، وكان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيقال: سموهم، فيكتب، ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله، فيسمونه

(1) الخراج، يحيى القرشي، ص: 58.
(2) الإدارة في العصر الأموي، ص: 21.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 86.
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 97.
(5) طبقات ابن سعد (1/ 213) تاريخ اليعقوبي (2/ 143).
(6) التراتيب الإدارية للكتاني (1/ 225) الدواوين في العصر الأموي، ص: 37.

وعياله، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان[1]، وكان للجند ديوان مركزي في دمشق، في حين وجدت دواوين فرعية في مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط[2].

وكان سلم رواتب الجند في عهد معاوية كالآتي: على درجات: شرف العطاء والمرتب 2000 درهم، عطاء العرب فئة (أ) 300 درهم، فئة (ب) 1000 درهم، فئة (ج) 1500 درهم، وأدخل الموالي في العطاء[3]، وكانت نفقات رواتب الجند في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ كالآتي:

- **في منطقة مصر**: كان عدد المسجلين في الديوان 40000 جندي منهم أربعة آلاف مسجلين بشرف العطاء[4]، وبالتالي يكون مجمل عطاؤهم 8000000 درهم، أما بقية المسجلين في الديوان فكان عددهم 36000 جندي، وعلى فرض أن عطاء الجندي سنوياً هو 300 درهم يصبح إجمالي عطاؤهم 10800000 درهم[5].

- **في منطقة الشام**: كان عدد الجند المسجلين في ديوان الشام ستون ألف جندي، كان الدخل السنوي لكل جندي ألف درهم، أما إجمالي نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهم[6].

- **في العراق نأخذ مثالاً ديوان البصرة**: حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل[7]، وبلغت مرتباتهم في عهد زياد 36000000 درهم ، فإذا أخرجنا منهم نسبة 10% مسجلين في شرف العطاء، (قياساً على ديوان مصر) يكون المتبقي20000000 درهم، وعليه يكون متوسط الدخل للجندي في ديوان البصرة حوالي 278 درهماً ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا[8].

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند، وهو الجهة المسؤولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلي:

● - فقد قام مندوب معاوية بن أبي سفيان ﷺ المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء

(1) حسن المحاضرة للسيوطي (1/ 65) الدواوين في العصر الأموي، ص: 37.
(2) الجيش والأسطول الإسلامي في العصر الأموي، ص: 535.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 98.
(4) ديوان الجند للسلومي، ص: 149 التطور الاقتصادي، ص: 99.
(5) الخطط للمقريزي (1/ 128).
(6) الخراج والنظم المالية، للريس، ص: 94.
(7) الحياة الاقتصادية في صدر الإسلام، بطاينة، نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص: 99.
(8) المصدر نفسه، ص: 100.

كل رجل في يده مباشرة، وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء. لكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائباً ولا يميتون ميتاً[1].

● - وفي عهد معاوية قام واليه على العراق زياد بن أبيه، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند، حيث اختصر عدد العرفاء المسؤولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد[2].

ب - **نفقات الصناعات الحربية**: على الرغم من عدم وجود أرقام محددة في نفقات الدولة على الصناعات الحربية، إلا أن هناك ما يدل على اتجاه هذه النفقة نحو التزايد، فقد كان اهتمام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية، وقد بلغ عدد قطع الأسطول البحري الإسلامي في بداية تكوينه مائتي مركب[3]، ثم تطور على يد الدولة الأموية ليبلغ في عهد سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمئة سفينة كبيرة[4].

2 - النفقات الإدارية:

تقسم هذه النفقات إلى قسمين: رواتب الموظفين، ونفقات المستلزمات الإدارية. وكانت هذه الأخيرة ضئيلة للغاية، ومتمثلة في الشموع وأوراق الكتابة، وغيرها من الأدوات البسيطة التي لا تشكل شيئاً يذكر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم، ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن عبد العزيز بالحساسية للمال العام، فكانت هذه النفقات في عهده أقل من غيره من العهود[5].

وسنركز الحديث على رواتب الموظفين، ويبدو أن رواتب الموظفين كانت متروكة إلى والي الإقليم، يحدد لنفسه ولعماله رواتبهم حسب ما يرى، وقد ساعدت هذه اللامركزية على ظهور مرتبات كبيرة - نسبياً - إذا ما قورنت بالمرتبات في عهد عمر بن الخطاب، وبمتوسط مستوى المعيشة المتواضع نسبياً في الدولة الأموية - حيث بلغ مرتب والي العراق زياد بن أبيه خمسة وعشرين ألف درهم شهرياً[6]، وظهرت أيضاً إلى جانب المرتبات الكبيرة مخصصات إضافية، فهذا زياد بن أبيه يجعل لأحد الولاة التابعين لإدارته مائة ألف درهم سنوياً عدا مرتبه[7].

---

(1) ديوان الجند للسلومي، ص: 169 التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 102.
(2) الإدارة في العصر الأموي، ص: 320.
(3) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص: 115، 116.
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 106.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 106.
(6) الإدارة في العصر الأموي، ص: 310.
(7) المصدر نفسه، ص: 310.

وهذه بعض النماذج من رواتب الموظفين خلال فترات من العصر الأموي، يمكن اعتبارها مؤثراً على مستوى رواتب ومكافآت موظفي الدولة، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها:

أ - كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العصر الأموي، وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون، هو: 3600 درهم سنوياً، وكان حدها الأدنى 720 درهماً سنوياً[1].

ب - يرجح أن أكبر مرتب لصاحب الشرطة في العصر الأموي بلغت مائة ألف درهم سنوياً[2].

جـ - مرتبات القضاة كانت عبارة عن رزق يجري عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاء[3]، وكان حده الأدنى ألف ومائتي درهماً سنوي[4]، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة آلاف درهم سنوياً[5].

3 - مصارف الزكاة:

حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: 60].

4 - مصارف الفيء:

قال ﷻ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ . . .﴾ [الحشر: 7].

5 - معظم مصارف العشور:

التي تأخذ من المسلمين هي نفقات تحويلية، لأنها تعتبر في حقهم زكاة، فتصرف في مصارف الزكاة.

6 - نفقات الضمان الاجتماعي:

تطورت نفقات الضمان الاجتماعي في الدولة الأموية، وكانت في صورة عينية، وكمثال على ذلك ما ورد من أن الفقراء في إقليمي الحجاز والعراق خلال الفترة (45هـ - 53هـ) كانوا

(1) الإدارة في العصر الأموي، ص: 310.
(2) المصدر نفسه، ص: 318.
(3) المصدر نفسه، ص: 331.
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 107.
(5) فتوح مصر وأخبارها، ص: 236.

يحملون بطاقات حُدِّد لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد منهم من المعونة العينية[1]. ثم أصبحت في عهد عمر بن عبد العزيز (99هـ - 101هـ) مزيجاً من النفقات النقدية والعينية، وكمثال على المعونات النقدية قضاء دين من أدان في غير سفه، ولا سرف، وتزويج الرجل الذي ليس له مال وله رغبة في الزواج[2]. ومثال النفقات العينية، أنه أمر لكل أعمى بقائد، ولكل خمسة من اليتامى بخادم[3]، وشملت في عهده نفقات الضمان الاجتماعي إلى غير المسلمين[4]، ثم تطور الأمر حتى مثلت نفقات الضمان الاجتماعي بنداً محدداً من بنود النفقات العامة للدولة، ومثال ذلك: يوجد ضمن بنود النفقات العامة السنوية في إقليم العراق خلال الفترة (120 - 126هـ) مبلغ عشرة آلاف درهم[5]، مخصصاً لبيوت رعاية الأحداث[6]، والعواتق[7].

ثالثاً: اهتمام الدولة بالزراعة:

مع بداية الدولة الأموية ظهرت الملكيات الزراعية الكبيرة، وذلك نتيجة لدخول الولاة والخلفاء في هذا الميدان، ولذلك اهتموا بإحياء الأرض الموات من أراضي الصوافي وغيرها من الأراضي المفتوحة الخصبة، وبالذات إقليم العراق وما شابهه، وقد ساعدهم في ذلك حجم السيولة التي يملكونها، فقد أحيا والي معاوية ﷺ على خراج العراق أرضين من البطائح لمعاوية، حيث قام بقطع الماء عنها وتجفيفها وزراعتها، وقد بلغت غلتها خمسة ملايين درهم[8]، وهذا مما يدل على عظم مساحتها، ولم يكن معاوية ﷺ يجعل ريعها كله داخلاً في نفقاته الخاصة، وإنما كان يتدارك منها شيئاً من النقص في النفقات العامة[9]، ولم يدخل تلك الأرضين في ملكه يتوارثها من بعده، بدلالة أن الأرض التي أحياها الحجاج فيما بعد لعبد الملك هي نفس الأرض التي أحياها معاوية ﷺ ، إلا أنها عادت مواتاً لغلبة الماء عليها[10].

---

(1) الإدارة في العصر الأموي، ص: 335.
(2) الأموال لأبي عبيد، ص: 234، 235.
(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 183.
(4) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص: 433.
(5) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 175 - 176.
(6) حداثة السن : كناية عن الشباب وأول العمر، لسان العرب مادة حدث (2/ 796).
(7) العواتق : جمع عاتق، وقيل: هي البكر التي لم تبن عن أهلها، وقيل: هي التي بين التي أدركت وبين التي عنست.
(8) فتوح البلدان، ص: 291، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص: 187.
(9) الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بطاينة، ص: 135.
(10) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، للريس، ص: 214.

ومن الناحية الشرعية فإن أحياء الأرض بصفة عامة مباح، بل هو سبب من أسباب الملك لها، وذلك استناداً على الأحاديث الواردة في ذلك، وهي إباحة عامة يستوي فيها الحاكم، والمحكوم، إلا أنه في حق الحاكم ينبغي أن تكون هناك قيود إضافية لعل من أبرزها:

- عدم استغلال الحاكم لسلطته ومكانته، وإنما يدخل في عملية الإحياء كأي فرد من أفراد الشعب.

- عدم استخدام أموال المسلمين في عملية الإحياء، بل يقوم بإحيائها من ماله الخاص.

- ألا يترتب على تملكه للأرض بطريق الإحياء ضرر على المسلمين، الأفراد أو جماعة المسلمين، وكذا من له ذمة[1]، وقد ساهم الإقطاع - أي الإقطاع بقصد الإحياء والإعمار - في تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة، فقد أقطع معاوية ﷺ بعض إخوته الجزيرة التي بين النهرين، فأرسل زياد بن أبيه الماء، فلما نظر إليها المقطوعة له ظن أنها بطيحة، فاشتراها منه زياد بمائتي درهم، وقد أقطع زياد بعد ذلك من تلك الأرض غيره، مما يدل على عظم حجمها، حتى إنه أيضاً حفر لها أنهاراً وليس نهراً واحداً[2]، وأقطع زياد بن أبيه مرّة مائة جريب[3] على نهر الأبلة، فحفر لها نهراً فسمي باسمه، كما أقطع أيضاً كل بنت من بناته - أي بنات زياد - ستين جريباً[4].

واستمرت الملكيات الزراعية بالتوسع مع مجيء الخلفاء الأمويين بعد معاوية ﷺ، ولم ينحصر الإقطاع للأراضي على الأسرة الأموية وبعض وجهاء قريش، وإن كان هو الغالب[5]، إذ كانت هناك إقطاعات لعامة الشعب، ومثال ذلك: أن زياداً كان يقطع الرجل القطيعة ويتركه سنتين فإن لم يعمرها أخذها منه[6].

وقد كانت تقدر مساحات تلك الإقطاعات بين (60 - 100) جريب[7]، وقد كانت إقطاعات الدولة الأموية من الصوافي أو من الأراضي الموات، ولكن بصفة عامة يؤخذ على القطاع في العصر الأموي عنصر المحاباة، إذ إن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا إما من الأسرة الأموية أو من أشراف قريش، وبحثت الدولة عن أصحاب السيولة النقدية القادرين

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 178.
(3) المقصود به هنا: وحدة المساحة.
(4) معجم البلدان (1/ 435) التطور الاقتصادي، ص: 180.
(5) أرض الصوافي، للمصري، ص: 122.
(6) تطوير نظام ملكية الأراضي، محمد علي، ص: 190، 191.
(7) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 188.

على استثمار تلك الأراضي، لكن ترتب على ذلك السلوك تركز الثروة الكبيرة في أيدي قلة من أفراد المجتمع[1].

كانت الزراعة في العصر الأموي تعتمد بصفة رئيسة على مياه الأنهار، ولذا نجد أن مراكز الإنتاج الزراعي الرئيسة كانت هي العراق ومصر والشام، وبالذات حول الأنهار[2]، وكان للقطاع الخاص دوره في تطوير الزراعة في العهد الأموي، وقد قام القطاع الخاص باستصلاح أراضٍ زراعية جديدة بمساحات واسعة، ومثال ذلك: أراضي البطائح التي كانت منذ عهد الفرس وحتى عهد الدولة الأموية أراضي مغمورة بالمياه، فبدأت من بداية الدولة الأموية حركة استصلاحها بحجز المياه عنها وتجفيفها، وقد خرجت منها أراضٍ واسعة وخصبة وفيرة الإنتاج[3].

وقد توسعت الملكيات الزراعية الخاصة، وترتب عليها زيادة في الإنتاج الزراعي، مما أدى إلى وجود أراضٍ بعيدة عن مصدر الري وهو النهر الأساسي، فحدث تطور في تقنية الري حيث ظهرت حركة حفر الأنهار والقنوات الفرعية وفق طرق هندسية تسمح لتلك الأراضي بالاستفادة من ماء النهر دون أن يؤدي ذلك إلى إغراقها، وقد توسع القطاع الخاص في حفر هذه الأنهار والقنوات، فحدثت تنمية زراعية نتيجة استفادة الأراضي التي كانت تمر بجوارها تلك الأنهار والقنوات الفرعية[4].

وقد تمّ نقل التقنية الزراعية من البلاد المفتوحة حديثاً إلى مراكز الإنتاج الزراعي الرئيسة في الدولة الأموية[5]. إلا أن القطاع الزراعي تعرض للتدهور في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية بسبب عوامل متعددة منها:

1 - الاضطراب السياسي، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية، ويبدأ هذا الاضطراب مع مجيء يزيد بن معاوية، ومعاوية الثاني، ومروان ابن الحكم.. إلخ.

2 - تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالي[6]، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أي حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة.

---

(1) تطوير نظام ملكية الأراضي، محمد علي، ص: 190 - 191.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 188.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 190.
(4) الإدارة في العصر الأموي، ص: 151.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 191.
(6) المصدر نفسه، ص: 196.

3 - إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التي روي أنها بدأت مع عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ [1]، وكان السبب في إعادتها أن الناس اعتادوا دفعها على الرغم من منع الإسلام لها[2]، فأراد معاوية ﷺ سحب مبالغها من غير المسلمين، من الدهاقنة المسؤولين عن الجباية، حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقوون بها ضد الدولة الإسلامية، وكان ينفقها ﷺ في مصالح الأمة الإسلامية، لكن الدهاقنة والأمراء المحليين أخذوا فيما بعد في ابتكار ضرائب إضافية عديدة[3]، أرهقت كاهل المزارعين، بالإضافة إلى ما صاحب تلك الضرائب من عنف في الجباية[4].

4 - إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخرب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث في عهد الحجاج من أن بثوقاً انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح فلم يعمل الحجاج - بوصفه والي المنطقة - على سد تلك البثوق مضارة لأهلها (لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث في الخروج عليه). فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[5].

5 - معاناة الدولة الأموية في بداية نشأتها من مجموعة من المهاجرين الذين قدموا إلى إقليم العراق، وكانوا يعانون من البطالة، حيث لم يكونوا مسجلين بالعطاء، وليس لديهم أراضٍ يقومون بزراعتها، فبدلاً من أن يقوموا بالعمل في مجال من المجالات الأخرى قامت فئة منهم بإحداث بثوق في نظام الري، فأدى ذلك إلى تخريب المزارع وإغراقها، فلما ولي زياد العراق قام بالقضاء على مثل تلك الأعمال[6].

6 - حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والي العراق - الحجاج بن يوسف - إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[7]. ونتيجة لتلك العوامل وغيرها، فقد بدت علامات

(1) تاريخ اليعقوبي (2/ 218).
(2) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص: 31.
(3) الخراج لأبي يوسف، ص: 186، 187.
(4) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 175.
(5) إدارة العراق في صدر الإسلام، رمزية خيرو، ص: 86.
(6) إدارة العراق في صدر الإسلام، رمزية خيرو، ص: 86.
(7) الخراج والنظم للريس، ص: 219، الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الأموية، ص: 71.

تدهور القطاع الزراعي العام في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية[1].

ومع ذلك فقد كانت خلال تلك الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال هذه الفترة، وكان من أبرزها ما يلي:

أ - إنشاء زياد بن أبيه جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة[2]، مما وفر الفرصة لاستغلال أراضٍ كانت تعطل فترة من السنة نتيجة فيضان الماء عليها، وينتظر حتى تنتهي فترة الفيضان، وتجف الأرض حتى يمكن إعادة زراعتها مرة أخرى، كما أعطى هذا المشروع فرصة إدخال زراعة النباتات المعمرة إلى تلك الأراضي بدلاً من افتقار الزراعة فيها على المحاصيل الموسمية، وبلغ من أهمية هذا الجسر أن الولاة ظلوا يتعاهدونه طيلة فترة العصر الأموي[3].

ب - عملية نقل الأيدي العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية في الجهة المنقول إليها ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- نقل زياد خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوي الخبرة الزراعية المشهورة إلى خراسان لتعميرها[4].

هذا وقد كانت الدولة الأموية تتولى مسؤولية إقامة منشآت الري الكبرى والعمل على صيانتها وتطهيرها، كحفر الآبار ومجاري الأنهار، وسد البثوق (التصدع)، وفتح البريدات (مفاتيح الماء)، وإقامة المسنيات (السدود)، أما أصحاب الأراضي فكانوا يشاركون أحياناً في تطهير الأقنية الكبيرة، وكذلك الأمر فإنه كان يقع على عاتقهم، بطبيعة الحال مسؤولية إقامة الأقنية ووسائل الري داخل ممتلكاتهم الخاصة[5].

وقد حاول الحكام الأمويون استغلال ما أمكنهم من الأراضي، فعملوا على توسيع نطاق الأراضي الزراعية، وبخاصة تجاه بلاد الشام، عن طريق استصلاحها وتأمين المياه، ووسائل الري لها[6]، حتى إن قصور الأمويين في الصحراء كانت مراكز مهمة للاستثمار الزراعي، حيث أقيمت حولها منشآت الري، من قنوات وصهاريج، ومجارٍ، وتوسعوا بذلك في استصلاح الأراضي بواسطة توفير الري لها[7].

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 198.
(2) الإدارة في العصر الأموي، ص: 247.
(3) المصدر نفسه، ص: 247.
(4) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، للدوري، ص: 27.
(5) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، عاطف رجال، ص: 135.
(6) التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام، ص: 82.
(7) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 136.

وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يبدي اهتماماً كبيراً بتنمية الزراعة ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولي عنايته لتطوير وسائل الري، وإخصاب الأراضي عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين[1]، كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظراً لخبرته الهامة في الشؤون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الري والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه: «بنهر يزيد»، وكانت هذه القناة في الأساس رافداً صغيراً بالكاد يروي ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبار كذلك، الأمر الذي أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفي لري أراضٍ واسعة في الغوطة[2]، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها[3].

وكانت غالبية الأراضي في بلاد الشام تعتمد في ريها على مياه الأمطار التي تتساقط عليها خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان، إلا أن أراضٍ واسعة[4] كانت تروى سيحاً، أي من المياه الجارية على سطح الأرض حيث تأتي من مياه بعض الأنهار ومن مياه العيون في الجداول والقنوات وكذلك فإن قسماً آخر من الأراضي كانت تروى بواسطة الآلات التي ترفع المياه من منخفضات بعض الأنهر إلى سواقٍ أعلى لري الأراضي التي يعلو مستواها عن مجاري الأنهر، أو التي ترفع المياه من الآبار والخزانات[5]، وتعتبر مياه العيون مهمة في ري المزروعات، حيث كانت تروي قسماً كبيراً من الأراضي في أنحاء الشام[6]. وكانت الغلات والمزروعات المتوفرة: القمح والشعير والرز والزيتون، والنخيل والعنب والتين والفواكه والقطن، وقصب السكر، والبقول، والسمسم، والرياحين، وغير ذلك[7].

رابعاً: اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية:

يتوسط موقع الدولة الأموية بين دول الشرق الأقصى من ناحية مثل الصين والهند ونحوهما وبين الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومعنى ذلك بالضرورة وطبقاً لمعايير ذلك العصر، أن أهم علاقاتها التجارية ارتبطت بهاتين الدولتين[8]، وبعد تولي معاوية الخلافة

(1) النزعات المادية، حسين مروة (1/ 476) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي.
(2) تهذيب تاريخ دمشق (1/ 245 - 246).
(3) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 141.
(4) مفاتيح العلوم، للخوارزمي، ص: 46؛ تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 141.
(5) تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، ص: 141.
(6) المصدر نفسه، ص: 143.
(7) تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، ص: 147 إلى 156.
(8) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 205.

استقرت الأمور وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك، واهتم معاوية بمصالح التجار وعمل على توسيع نطاق التجارة، وتميز أهل الشام في حرفة التجارة وفتحوا علاقات تجارية مع غربي أوروبا واستفادوا من الأسطول الإسلامي. ومن بين العوامل التي ساعدت على نشاط حركة التجارة الثراء العريض الذي نعمت به طبقة الحكم وحاشيتهم، حيث نمّى في نفوسهم حب البذخ والرفاهية، وبالتالي توفر عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المنتوجات الكمالية، فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن، مما زاد في فعالية التجار وازدهار التجارة[1]، وكان الأمويون يقومون بدور كبير في عالم التجارة وخصوصاً أن الخليفة معاوية ﷺ كان والده من كبار تجار قريش، كما أن معاوية نفسه لما كان والياً في عهد عثمان ابن عفان على بلاد الشام كان يرسل بقوافله التجارية من الشام إلى حاضرة الجزيرة العربية[2]، وكان التجار يحتلون مكانة اجتماعية عالية في العصر الأموي وكانوا يقومون بتأسيس الشركات في سبيل زيادة فعالية التجارة، حيث كانوا يساهمون في الشركة بتقديم المال وممارسة العمل كذلك، أو بواحدةٍ منهما، فإذا أقدم صاحب المال على تقديم ماله لآخر ليتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها، فيسمى ذلك الاتفاق بالمضاربة[3]. وقد ازدهرت شركات المضاربة وأصبحت وسيلة مهمة في مجال العمل التجاري[4]، وكانت تجارة الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد أصبحت عاصمة الدولة دمشق مركزاً تجارياً مهماً يعود إلى الظروف السياسية الجديدة التي نشأت، فغيرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عما كانت عليه سابقاً في العصر البيزنطي، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحطاً للتجارة الشرقية[5]، وبالتالي أصبحت مركزاً لتوزيع البضائع إلى الجهات المختلفة، بعد أن كانت القوافل المحملة بالبضائع الشرقية تتجه مباشرة إلى إنطاكية على ساحل الشام الشمالي.

وهكذا كان لأهمية تجارة دمشق التي تتكدّس في أسواقها البضائع المتنوعة، المنتجة محلياً والمستوردة إلى أن قال ياقوت بأنه يستحيل أن يطلب شيء في أسواق دمشق غير موجود، حتى إن السلع الغالية الثمن التي تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدن موجودة فيها[6].

(1) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 168.
(2) المصدر نفسه، ص: 172.
(3) المصدر نفسه، ص: 174.
(4) المصدر نفسه، ص: 174.
(5) المصدر نفسه، ص: 183.
(6) معجم البلدان (2/ 465).

ثم إن دمشق كانت بحكم موقعها الجغرافي المتاخم للبادية المركز التجاري الهام الذي يقصده البدو والمقيمون في الصحراء[1]، وقد اشتهرت مدن الشام كحلب والرصافة، وحمص، والرملة والقدس وإنطاكية بأهميتها التجارية، ونشاط أسواقها[2] وكانت عاصمة الشام محط رحال القوافل التجارية الآتية من الشرق، ولا شك أن الكوفة والبصرة والموصل، ومدن الحجاز ونجد وغيرها قد ازدهرت حركة التجارة فيها أيضاً، إلا أن مدن الشام كانت تزدهر فيها التجارة أكثر من غيرها، حيث إنها تعتبر مراكز تجارية كبرى وأسواقاً هامة، كما أن الأسواق الموسمية التي كانت تقام في بعض المدن، وتعرض فيها البضائع المتنوعة بكثرة، كانت توفر مجالاً أوسع لتأمين كافة متطلبات واحتياجات سكان المدن والقرى كذلك، بالإضافة إلى أن هذه الأسواق كانت مناسبة هامة للتجار الذين يأتون إليها من أماكن مختلفة لتستفيد من كل ذلك. وقد كان من هذه الأسواق التي كانت قائمة في العصر البيزنطي واستمر قيامها في العصر الأموي سوق بُصرى الذي كانت تطول مدة إقامته، حيث كان يستمر من ثلاثين إلى أربعين يوماً، وكذلك فقد كان هناك سوق أذرعات الذي استمر قيامه حتى ما بعد العصر الأموي[3].

وأما بالنسبة للتجارة الخارجية في عهد معاوية ﷺ وابنه، فقد ازدهرت التجارة مع الدولة البيزنطية، وازدادت نمواً وقوة، وقد ساهمت عدة عوامل في هذا الازدهار منها:

1 - كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئي، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب.

2 - الاستقرار الأمني من الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلى إقليم الشام، بحثاً عن فرص استثمار تجارية آمنة.

3 - الاعتماد الكلي لكل من الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردي، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً في حجم النقد الذهبي داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية. ومن العلامات التي تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين في عهد معاوية ومن بعده ما يلي:

أ - كمية الدنانير الذهبية البيزنطية التي كانت موجودة في داخل الدولة الأموية تتم بها عمليات التداول الداخلية.

---

(1) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 183.
(2) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 183.
(3) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 187.

ب - استمرار مصانع إنتاج البردي في مصر في إنتاجه على النهج البيزنطي للتصدير حتى عهد عبد الملك بن مروان[1].

خامساً: الحرف والصناعات:

تأثرت الحرف والصناعات في العصر الأموي بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما تأثرت الصناعات والحرف بطبيعة الاقتصاد الأموي، حيث كان النشاط الزراعي هو النشاط الرئيس فيه، فظهرت وتطورت صناعات تعتمد في موادها الخام على القطاع الزراعي، مثل صناعة النسيج وصناعة المعاصر والمطاحن، كما واكبت الصناعة حركة التطور العمراني بالدولة الأموية، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء، إضافة إلى تأثر الصناعة بالجو العسكري السائد في معظم فترات العصر الأموي، حيث تطورت صناعة السفن التجارية[2].
وقد اهتمت الدولة الأموية ببناء أسطول حربي، ليقف في وجه الأسطول الحربي البحري البيزنطي، والذي كان يهدد سلامة الشواطئ الغربية للدولة الإسلامية، فتطورت صناعة السفن الحربية في العصر الأموي بشكل كبير ومتلاحق، فقد كان الإنتاج في بداية العصر الأموي مقتصراً على السفن، التي كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام 49هـ، حيث أمر معاوية بن أبي سفيان ﷺ، بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم في دار الصناعة الجديدة، والتي تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان[3]. ثم تطورت هذه الصناعة، فأنشئت في مصر منطقة صناعية جديدة، خاصة بصناعة السفن الحربية، وذلك عام (54هـ)[4].

واستمرت الدولة الأموية في تطوير صناعة السفن فيما بعد عهد معاوية ﷺ وقد أصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني، كما أصبحت مناطق جذب وتوطن صناعي، فأصبحت أماكن استثمار خصبة، حيث أُنشئت فيها الفنادق، والمطاحن، ونحوها من الأنشطة الأخرى، وساعد على نمو وتطور هذه الصناعة، ما اتسمت به منذ بداية نشأتها، من دقة التنظيم، ومن صورة هذه الدقة ابتكار وظيفة المشرف العام على دار الصناعة ويسمى متولي الصناعة، ومن أبرز مهامه: جمع الطاقات البشرية الفنية العاملة في هذا المجال من نجارين وحدادين وعمال ونحوهم، سواء من الأقاليم المجاورة للصناعة، أو من مختلف

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 209.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 235.
(3) خطط الشام (5/ 37)، النظم الإسلامية، إبراهيم العدوي، ص: 355، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 239.
(4) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص: 166.

أقاليم الدولة، ومن مهامه أيضاً: توفير الأدوات الخام، مثل الأخشاب والمسامير وغيره من مستلزمات دار الصناعة.

وعليه يمكن القول: أن التنظيم كعنصر من عناصر الإنتاج في العصر الحديث ترجع جذوره إلى القطاع العام الصناعي في العصر الأموي، أو «متولي الصناعة»، ومن صور دقة تنظيم هذه الصناعة، الاهتمام بتحديد أجور العمال، وتوفير الكميات الغذائية اللازمة لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين في هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل، وتوفير وحدات سكنية للعمال، والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذا وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة[1]، ونتج عن ذلك كله تطور هائل في حجم الأسطول البحري إبان العهد الأموي[2].

لقد كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية الأموية في ميادين البحر، فاتخذ معاوية الوسائل المناسبة لإضعافها ثم القضاء عليها فيما بعد، وفي هذا الفقه درس عظيم لقادة الأمة في معرفة عوامل قوة العدو، وجوانب تفوقه، ثم السعي للوصول لنقطة تساوي ثم تفوق على الخصوم، سواء في الميادين العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية أو الإعلامية، ومما نلاحظه الآن القوى العسكرية الهائلة التي تميز بها عدونا سواء على مستوى السلاح الجوي أو النووي والذري، فواجب على الأمة أن تسعى لإيجاد حلول حتى تستطيع أن تقاوم أعداءها، وعلى علماء الأمة ومفكريها ألا يخضعوا للضغوط النفسية والسياسية والإعلامية التي يمارسها الأعداء علينا، وعليهم أن يبينوا أحكام الله في امتلاك ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. إن استمرار الأعداء في امتلاك الأسلحة الرادعة والتي لها قدرة بإذن الله على حسم المعارك العسكرية، جعلهم يتجبرون ويتغطرسون ويعملون على إفساد عقائدنا وثقافتنا وديننا، ويستولون على خيراتنا وثرواتنا، وديننا يوجب علينا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، فلذلك وجب علينا أن نسعى لامتلاك الأسلحة الرادعة لكي نحمي بها أمننا وديننا ونقيم العدل وندفع الظلم عن البشرية.

ومن الصناعات التي اشتهرت في العهد الأموي: صناعة السفن التجارية، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، ومع ذلك كانت مناطق تصنيعها مختلفة، فقد اختصت منطقة البحرين أكثر من غيرها بإنتاج السفن التجارية، في حين كانت مصر، وعكا، وتونس مواطن تصنيع السفن الحربية، وساعد البحرين على ذلك وقوعها على الخليج العربي،

(1) النظم الإسلامية للعدوي، ص: 354، 355.

(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 241.

والذي كان يعد من أهم طرق المواصلات التجارية البحرية بين الشرق والغرب وكذا ما اكتسبه أهلها من خبرة ملاحية نتيجة احتكاكهم بشعوب لديها خبرات ملاحية كشعوب الهند، والصين[1].

ولم تقتصر صناعة السفن على البحرين، بل امتدت إلى مدينة واسط بالعراق، وقد تطورت هذه الصناعة في عهد ولاية الحجاج بصفة خاصة[2]، فقد أدخل تحسينات على صناعة السفن التجارية لتستطيع السير في عرض البحر، فأمر بتكبير حجمها، واستخدام المسامير لتقويتها، والاهتمام بهيكلها العظمي[3]، وكانت السفن التي تصنع في واسط تسمى الواسطية، وكانت مدينة واسط تنتج القوارب الصغيرة، والتي كانت تستخدم للنزهة والسفر ونقل السلع التجارية بين واسط والبصرة لضحالة الطريق النهري بينهما وعدم قدرة السفن على السير فيه[4]، ولم تكن مراكز إنتاج السفن الشرقية بالدولة الأموية متخصصة في إنتاج السفن التجارية فقط وإن كان هو الغالب عليها، بل كان لديها القدرة المزدوجة، فقد قام الحجاج أيضاً ببناء قوة عسكرية بحرية بالخليج العربي وبحر الهند[5].

سادساً: شبهات حول مصارف الأموال في عهد معاوية:

أثار بعض المؤرخين شبهات حول مصارف الأموال في عهد معاوية ﷺ، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية، منها:

1 - التفريط في خراج بعض الأقاليم والتفرقة في العطاء:

أ - إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص: تتعدد الروايات التي تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص لقاء تأييد الأخير له في حربه ضد علي بن أبي طالب ﷺ، وجُل هذه الأخبار تحوي روحاً عدائية لعمرو ومعاوية، وتصور اتفاقهما على حرب علي كما لو كانت مؤامرة دَنيئة أو صفقة مريبة، خان فيها الرجلان ربهما ودينهما وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر سريع، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصره لقضية اجتمع حولها آلاف الرجال في الشام وغيرها - وهي الطلب بدم عثمان - إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه، وبعض هذه الروايات تحوي سباباً لهذين الصحابيين، كأن تزعم أن عمرو فضَّل ولاية مصر

(1) البحرين في صدر الإسلام، عبد الرحمٰن نجم، ص: 84.
(2) العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ص: 101.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 242.
(4) الحجاج بن يوسف الثقفي، ص: 59 هزاع الشمري.
(5) واسط في العصر الأموي، ص: 243.

على حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال: إنما أردنا هذه الدنيا[1]، أو أنه قال لمعاوية: لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك[2]، أو قوله: إنما أبايعك بها ديني - «أي: بمصر»[3] - أو قوله لمعاوية: ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده[4]، إلى غير ذلك من الروايات[5].

وكذلك وردت روايات باطلة وموضوعة عند المسعودي وكتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة وغيرها، تجعل عمرو بن العاص رجل مصالح، وصاحب مطامع، وراغب دنيا، وقد تأثر بالروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة مجموعة من الكتّاب والمؤرِّخين، فأهووا بعمرو إلى الحضيض، كالذي كتبه محمود شيت خطاب[6] وعبد الخالق سيِّد أبو رابية[7]، وعباس محمود العقَّاد الذي يتعالى عن النَّظر في الإسناد، ويستخفُّ بقارئه، ويظهر له صورة معاوية وعمرو ﷺ بأنَّهما: انتهازيَّان، صاحبا مصالح، ولو أجمع النَّاقدون التاريخيون على بطلان الرِّوايات التي استند إليها في تحليله، فهذا لا يعني للعقَّاد شيئاً، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة، واهية، لا تقوم بها حجة: . . . وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وصحَّة هذه الكلمات، وما ثبت نقله، ولم يثبت منه سنده، ولا نصُّه فالذي لا ريب فيه، ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه: أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة، ومعاونة على الملك، والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النَّصيب الذي آل إلى كلٍّ منهما، ولولاه لما كان بينهما اتفاق[8].

وهناك عدة دلائل ترد على الروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة التي لاقت رواجاً واستقراراً في تشويه صورة عمرو بن العاص ومعاوية بالظلم والبهتان منها:

- **ما عرف من صحة إسلام وتقوى معاوية وعمرو**، وتاريخهما المضيء في خدمة دين الله منذ أسلما[9]، ففي معاوية يكفي دعاء رسول الله ﷺ عندما قال: «**اللهم اجعله هادياً مهدياً**،

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(2) الإمامة والسياسة (1/ 98).
(3) العقد الفريد (4/ 345).
(4) مروج الذهب (3/ 29).
(5) وقعة صفين، ص: 237 سلسلة هذه الروايات عن الشيعة الإماميَّة.
(6) سفراء النبي ﷺ، ص: 508.
(7) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية، ص: 316.
(8) عمرو بن العاص، للعقاد، ص: 231 - 232.
(9) الدولة الأموية حمدي شاهين، ص: 416.

واهد به»[1]، وقوله ﷺ «اللّهمّ علِّم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب»[2]، وأما عمرو بن العاص ﷺ فقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان حيث قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»[3] وفي حديث آخر قال: «ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام»[4]، وقول رسول الله ﷺ: . . «وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله لخيراً كثيراً»[5].

- كانت بيعة عمرو لمعاوية في عهد علي على الطلب بدم عثمان، فقد كان تأثر عمرو بمقتل عثمان عظيماً، فعندما سمع خبر مقتل عثمان. . . ارتحل راجلاً يبكي، ويقول: يا عثماناه: أنعي الحياء والدين. . . حتَّى قدم دمشق[6]، فقد كان من أقرب أصحابه، وخلانه، ومستشاريه، وكان يدخل في الشُّورى - في عهد عثمان - من غير ولاية، ومضى إلى معاوية ﷺ ليتعاونا معاً على الاقتصاص من قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد[7]، لقد كان مقتل عثمان كافياً لأن يحرِّك كلَّ غضبه على أولئك المجرمين السَّفَّاكين، وكان لابدَّ من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرَّؤوا على حرم رسول الله ﷺ، وقتلوا خليفته على أعين النَّاس، وأيُّ غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟! وإن كان هناك من يشك في هذا الموضوع، فمداره على الرِّوايات المكذوبة التي تصوِّر عمراً: كلُّ همه السُّلطة والحكم[8].

- ومن الدلائل على بطلان فرية إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص ، ما ذكره أبو مخنف أحد رواة الفرية السابقة، أن دفع معاوية جيشه إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار علي بن أبي طالب سنة 38هـ - وكان عمرو قائده في هذه الحملة - أنه كان: يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب علي لعظم خراجها[9]. . . فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمرو وهو في مسيس الحاجة إليه؟!

- ومن الدلائل أيضاً: أن معاوية كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر - وردان - أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً، فرد عليه: كيف وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم[10]؟ ولم

(1) صحيح سنن الترمذي، للألباني (3/ 236).
(2) موارد الظمآن (7/ 249) إسناده حسن.
(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/ 238) رقم 155.
(4) الطبقات (4/ 191)، السلسلة الصحيحة (1/ 240) رقم 156.
(5) المستدرك (3/ 455) صححه الحاكم وقال الذهبي: صحيح إسناده حسن.
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص: 481.
(7) عمرو بن العاص، للغضبان، ص: (489، 490).
(8) المصدر نفسه، ص: 492.
(9) تاريخ الطبري (6/ 9).
(10) فتوح البلدان، ص: 219.

يلِ وردان خراج مصر لمعاوية إلا في ولاية عمرو بن العاص، لأن من ولوا مصر بعد موت عمرو - وهم: عتبة بن أبي سفيان، وعقبة بن عامر ومسلمة بن خالد - كانوا يتولون صلاتها وخراجها. وهذه الرواية صريحة قاطعة في الدلالة على اهتمام معاوية بزيادة حصيلة الخراج في مصر، وفي ولاية عمرو بن العاص عليها، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كان فائض الخراج في مصر يحمل إلى معاوية في دمشق ليواجه به وجوه الإنفاق المتنوعة[1].

كما أن معاوية لم يكن يستحلّ أن يتنازل عن خراج مصر - وهي من أغنى أقاليم الدولة الإسلامية آنذاك - لفرد واحد وهو يعلم أنه حق الأمة كلها، وأنه لا يملك التنازل عنه، وقد روى ابن تيمية عن عطية بن قيس قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطبنا يقول: إن في بيت مالكم فضلاً بعد أعطياتكم وإني قاسمه بينكم، فإن كان يأتينا فضل عاماً قابلاً قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة علي، فإنه ليس بمالي وإنما هو مال الله الذي أفاءه عليكم[2].

وإذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من تنافس الأمصار الإسلامية مع بعضها، ووجود معارضة للأمويين في مصر كانت حديثة العهد منذ تبعية مصر لعلي بن أبي طالب ﷺ حتى دخلها عمرو ابن العاص سنة 38هـ، لازددنا يقيناً أن أهلها لم يكونوا يقبلون ما يزعمه الرواة حول إعطائها طعمة لابن العاص، وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجال مصر من بذل في سبيل نصرة معاوية مثلما بذل عمرو بن العاص، إن لم يفقه، كمعاوية بن حديج وأصحابه من العثمانية، وهؤلاء لا يقبلون بحال أن يمتاز عمرو عليهم كل هذا الامتياز، قد مر بنا فيما مضى أن معاوية بن حديج هذا قد أرجع ابن أخت معاوية - عبد الرحمٰن بن أم الحكم - الذي ولاه معاوية مصر، من قبل أن يدخلها، ورفض أن يتولى إمارتهم ورده إلى الشام على نحو غير كريم، فما استطاع معاوية أن يغضب ابن حديج[3].

ب - التنازل عن خراج «دارابجرد» للحسن بن علي: زعم بعض المؤرخين أن معاوية تنازل للحسن بن علي ﷺ عن خراج «دارابجرد»، وأن يعطيه مما في بيت مال الكوفة مبلغ خمسة آلاف ألف درهم مقابل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وأن الحسن قد أخذ ما في بيت مال الكوفة ولكنه لم يستطع الحصول على خراج «دارابجرد» إذ إن أهل البصرة قد منعوه منه، ويزعمون أن ذلك كان بتحريض معاوية أو بمبادرة من البصريين، على أن هذه الرواية تغض من شأن الحسن ومعاوية معاً وتجعلهما في موقف التواطؤ على أكل أموال المسلمين بالباطل[4]،

(1) الأمويون والفيء، ص: 67، 68، فهمي عبد الجليل.
(2) منهاج السنة النبوية (3/ 185).
(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 417.
(4) المصدر نفسه، ص: 417، تاريخ الطبري (6/ 165).

وهذا باطل ولا يصح، والصحيح مثبت في البخاري بأن الحسن قال لوفد معاوية، عبد الرحمٰن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به[1]، فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بني عبد المطلب، يريد الحسن أن لا يطالبهم معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه في قادم[2].

وذكر ابن أعتم أن الحسن قال: أما المال فليس لمعاوية أن يشترط لي فيء المسلمين[3]، والمعلوم أن جباية الخراج من مهام الدولة، ولا علاقة مباشرة بين الحسن وأهل البصرة في هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج «دارابجرد» لم يكن في الأموال التي صيرت إلى الحسن[4]، ورُوي أن الحسن قال لمعاوية: إن عليَّ عِدَّات ودُيوناً، فأطلق له من بيت المال نحو أربعمائة ألف أو أكثر[5]، وذكر ابن عساكر: يُسلَّم له بيت المال فيقضي منه ديونه ومواعيده التي عليه، ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته[6]، وذهب بعض المؤرخين إلى أن إبقاءه ما في بيت المال معه (خمسة ملايين درهم)، استبقاه لأولئك المحاربين الذين كانوا معه، يوزِّعه بينهم، ويبقى لمعيشته له ولأهل بيته ولأصحابه[7]. ولا شك أن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد في تخفيف شدة التوتر.

إن الذي جاء في رواية البخاري هو الذي أميل إليه، فالأمر لا يكون تجاوز طلب العفو عن الأموال التي أصابها الحسن وآله في الأيام الخالية. وأما الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس[8]، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة[9]. وأما حقه في

(1) البخاري، كتاب: الصلح رقم 2704.
(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 64.
(3) الفتوح (3/ 293).
(4) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 64.
(5) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص: 7.
(6) تاريخ دمشق (14/ 90).
(7) في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، ص: 268.
(8) الأخبار الطوال، ص: 218.
(9) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 63.

العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشرة معشار ما ذكرته الروايات[1].

جـ - التفرقة في العطاء: أول من سن ديوان العطاء في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ، أما قبل ذلك في عهد رسول الله ﷺ، فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك[2]، وقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين، وكان شيئاً كثيراً[3]، فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس في توزيع الغنائم أمر مباح وقد يكون مستحباً إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك[4]، وإن كان ذلك يزيد في غنائمهم عن بقية المسلمين.

ثم كثرت بعد ذلك الغنائم المجلوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب، فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه على نحو معروف، وفضل أصحاب السابقة والقرابة من النبي ﷺ على من عداهم[5]، . . ولما جاء الأمويون فضلوا أهل الشام على من عداهم، فقد كانوا أنصارهم المخلصين، وهم عماد الجيوش المجاهدة سواء في الشمال في جهاد الروم أو في الغرب في فتوح إفريقية والأندلس، وهم المحافظون على سلامة الدولة وقمع مخالفيها، وكم استنجد بهم ولاة الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند المصر في الدفاع عن أنفسهم ونظامهم كما حدث في قتال ابن الأشعث[6]، ومواجهة ثورة يزيد بن المهلب زمن يزيد بن عبد الملك[7]، وكما حدث في انتقاض البربر الخوارج بإفريقية في عهد هشام[8].

2 - التوسع في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار:

أنفق معاوية ﷺ أموالاً كثيرة ليتألف بها قلوب الزعماء والأشراف ويوطد أركان الدولة الإسلامية التي قامت بعد فترات من الصراع والتطاحن، فقد رأى معاوية ﷺ أن إراقة بعض المال خير من إراقة كثير من دماء المسلمين. . فأعطى هؤلاء الرجال المال يستميل به قلوبهم، وقلوب أتباعهم وأنصارهم، ويعلي به مكانتهم ويسد خلة من وراءهم، ولعله قد فهم من إعطاء

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 63.
(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 418.
(3) الاستخراج لأحكام الخراج، ص: 26 ابن رجب الحنبلي.
(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 418.
(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 418.
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 420.
(7) المصدر السابق، ص: 420.
(8) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 420.

الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويسلّ سخائم نفوسهم، أنه يجوز أن يعطي أمثال هؤلاء الرجال ليتألف قلوبهم ويضمن ولاءهم، والولاء للدين والدولة يختلطان في فهم معاوية وبني أمية حيث قامت دولتهم فيما اعتقدوا لنصرة الدين وجمع شمل أهله[1]، وأخيراً فإن كان معاوية مخطئاً في ذلك فما القول في هؤلاء السادة الذين قبلوا عطاياه وجوائزه وفيهم من اشتهر بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى؟! إن من الحق أن نقول: إن المجتمع الإسلامي في ذلك العهد كان يشهد تغيراً كبيراً عن زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعالياته السياسية ترى أن من حقها التميز في العطاء[2].

3 - مظاهر الترف عند الأمويين:

هذا ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا، والحق أنه كان عندهم لون من ألوان البذخ في سكناهم وفي لباسهم وفي عطائهم ونفقاتهم، وقد لفت معاوية نظر عمر بن الخطاب ﷺ إليه وهو بعد أحد ولاة الشام، يغدو في موكب ويروح في آخر، ولكن من الحق أيضاً ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربي والإسلامي آنذاك، فهي جزء منه، تتأثر به كما تؤثر فيه، وفي ذلك العصر كان التطور الاجتماعي يتلاحق، ومظاهر الغنى وانثيال الأموال والرغبة في التمتع الحلال به تصبح أمراً ظاهراً يدفع الذوق العام والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع.. وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة في زهد معاوية ورقة ثيابه[3]، أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع[4]، فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك، بل هي دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصاً ولا ترى التنعم حراماً[5]، وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة في وجوه الإنفاق المالي في ذلك العصر لا نجد مظاهر الترف والبذخ قصراً على بني أمية، خلفائهم وولاتهم، فبعض بني هاشم وبني الزبير وغيرهم من معارضي الأمويين لم يكونوا أقل سماحة بالمال من بني أمية ولا أكثر حرصاً عليه[6]، وإذا كان بنو أمية قد ابتنوا القصور فقد بنى رجال من أشراف العرب قصوراً كان لها ذكر وبهاء وكان العرب يعدون ذلك كرماً، ويتفاخرون به، ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرافهم وإن لم يكن

(1) الأمويون والفيء، ص: 72 - 73، نقلاً عن الدولة الأموية شاهين، ص: 422.
(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 422.
(3) العواصم من القواصم، ص: 217، تعليق محب الدين الخطيب.
(4) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 424.
(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 424.
(6) المصدر نفسه، ص: 424.

حاكماً[1]، والترف في المجتمعات الإسلامية ظاهرة سلبية لها ما بعدها.

إن بحبحة الأمويين في الإنفاقات المالية أدت إلى ظهور الترف، ثم تعمق وتجذر في الأمة حتى أصبح ترفاً مدمراً، ظهرت معالمه وآثاره في سقوط بلاد الشام في الصليبيين، ثم سقوط بغداد في يد المغول وزوال الدولة العباسية، لذلك يكره الإسلام الترف ويحذر منه أشد التحذير: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]. إنه كالحمض الأكّال الذي ينخر في جسم المادة فيذهب بصلابتها، فتصبح هشة سهلة القصف، أو تصبح لينة لا قوام لها في الصدام، وقد كانت وفرة المال في أيدي الناس هي الباب المؤدي إلى الترف بطبيعة الحال - ولكن هذا يفسر ولا يبرر -، فإنه لا يوجد تبرير لمعصية الله، وقد جاء المال بوفرة نسبية على أيام عمر ﷺ ولكنه تصرف بشأنه بمنع الفساد، فمنع الصحابة - رضوان الله عليهم - من الخروج من المدينة - للضياع والتجارة - حتى لا تتكون منهم طبقة تملك المال في أيديها وتملك السلطان «الأدبي» على الناس، فيحدث التميز وتفسد الأحوال، فضلاً عن احتمال إصابتهم هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد مشورتهم حين تترهل نفوسهم - وإلى جانب ذلك - وقبل ذلك، أخذ عمر ﷺ نفسه وأهل بيته بالشدة الحازمة، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس، فيفسد الناس.

أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولي الأمر، يسمح بالنفع ويمنع الضرر، فإنه لا بد أن يؤدي إلى نتائجه المحتومة حسب السنة الإلهية، لا لأن المال في ذاته هكذا يصنع، ولكن لأن الجهد البشري المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل فتنفرد الآفة وحدها بالسلطان، وآفة المال الترف، وعلاجها في يد ولي الأمر... بنشر روح الجد في المجتمع وبإعطاء القدوة من نفسه لبقية الناس. أما حين يترك في أيدي الناس بلا ضابط - مع وجود فئة تعمل جاهدة في إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس، فالنتيجة هي ما قررته السنة الربانية التي جاء بيانها في كتاب الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

والترف مُعْدٍ ككل آفة.. فحين لا يعالج، ولا يوقف فإنه ينتشر ولا بد.. وحين يكون مبتدؤه في قصور الخلافة فأمر أسوأ، لأن الحكام دائماً قدوة، وقد كان الأمويون - برغم وجود الترف بينهم - أقل فساداً بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالاً بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد في سبيل الله من ناحية أخرى، فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسري بينهم سريعاً، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد، ومن

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 425.

قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم في التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير، وشيئاً فشيئاً غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلامية الأخرى[1].

المبحث السادس

القضاء في عهد معاوية ﷺ والدولة الأموية

يعتبر القضاء في العهد الأموي من الدرجة الثالثة بعد القضاء في العهد النبوي والقضاء في العهد الراشدي، لأن العصر الأموي كان زاهياً وفيه كثير من آثار العهد الراشدي، وكانت كثير من الأعمال امتداداً للعهد الراشدي، وخاصة في جانب الفتوحات الإسلامية، وانتشار الدعوة في المشارق والمغارب ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وازدهار الحضارة الإسلامية[2].

أولاً: صلة العهد الأموي بالعهد الراشدي:

كان العهد الأموي - وخصوصاً عهد معاوية - امتداداً للعهد الراشدي في عدة جوانب، فبقي كثير من الصحابة إلى العهد الأموي، وشاركهم في العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين، ثم صغار التابعين، كما بقي بعض قضاة العهد الراشدي يمارسون القضاء في العهد الأموي، وبعدهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث رحمه الله، وبقيت في العهد الأموي آثار التربية الدينية وسمو العقيدة، وآثار الإيمان، والالتزام بأهداب الدين، والتقيد بالأحكام الشرعية، وظهر في العهد الأموي عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا صلة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلماء والمجتهدون في العهد الأموي أساتذة لأئمة المذاهب التي ظهرت في العهد العباسي، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة في العهد الأموي، وزهر التوسع بالاجتهاد، كما بدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية، والانفتاح على الحضارات الأخرى، وترجمة الثقافات والعلوم من الأمم المجاورة[3].

ثانياً: تخلي الخلفاء عن ممارسة القضاء، وفصل السلطات:

كان الخلفاء الراشدون يتولون القضاء بأنفسهم، ويفصلون في القضايا والدعاوى

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، محمد قطب، ص: 126، 127.
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 165.
(3) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 165.

والمنازعات، وصدرت عنهم أقضية كثيرة، وكان الولاة في الأمصار يتمتعون بنفس السلطات والصلاحيات الممنوحة للخليفة لأنهم نواب عنه، إلا إذا قيدت سلطتهم ومنعوا من القضاء، وعين معهم القضاة للفصل بين الناس، ومن هؤلاء الولاة معاوية بن أبي سفيان الذي بقي والياً على الشام عشرين سنة، وكان يتولى القضاء والحكم بنفسه[1]، ولما تولى معاوية الخلافة تخلى عن ممارسة القضاء، وعين القضاة في حاضرة الدولة الإسلامية بدمشق وفوَّض إليهم السلطة القضائية، وخولهم الصلاحيات الكاملة في الدعاوى، وسار ولاته في الأمصار على هذا النهج، وابتعد الولاة عن أعمال القضاء، وسار خلفاء بني أمية على هذه الخطة طوال العهد الأموي، سواء في عاصمة الدولة الأموية، أم في سائر الأمصار والمدن والولايات وانقطعت صلة خلفاء بني أمية عن القضاء الإسلامي إلا في ثلاثة أمور:

1 - تعيين القضاة مباشرة بالعاصمة دمشق.

2 - الإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم، ومتابعة شؤونهم الخاصة في التعيين والعزل، والرزق، وحسن السيرة، ومراقبة الأحكام القضائية التي تصدر عنهم، للتأكد من مطابقتها للحق والعدل، والشرع والدين، والالتزام بالسلوك القضائي القويم.

3 - ممارسة قضاء المظالم، وقضاء الحسبة. وقد أولى خلفاء بني أمية أهمية خاصة ورعاية كاملة لقضاء المظالم حتى وقف على قدميه، وأصبح له جهاز كامل مستقل. ومن ذلك نرى أن القضاء في العهد الأموي كان مستقلاً عن أي سلطة أخرى حتى سلطة الخليفة أو الوالي الذي كانت سلطته تنتهي عند تولية القاضي أو عزله، دون أن يكون لهم تدخل في أعمال القاضي واجتهاده وحكمه، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التي يصدرها القضاة[2].

قال النُّباهي: ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدّمه من ملاحظة القضاة، وبقي الرسم على حذو ترتُّبه زماناً[3]. فقد كان معاوية ﷺ أول خليفة امتنع من القضاء تماماً، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة في قاعدة ملكه، فضلاً عن قضاته في الأمصار[4].

ثالثاً: رزق القضاة:

من المعلوم أن عمر بن الخطاب هو الذي فصل القضاء عن الولاية، وهو أول من رتب أرزاق القضاة، وأمَّا أمير المؤمنين علي وهو المعروف بالزهد والقناعة فقد قال لعامله على

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 166.
(2) المصدر نفسه، ص: 167.
(3) تاريخ قضاة الأندلس، ص: 24.
(4) عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص: 342.

مصر في شأن القضاة: . . . وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس[1].
واستمر الحال على ذلك في العهد الأموي، فكانت تجري على القضاة أرزاقهم من بيت المال[2]، مع التوسع عليهم، واختلاف المقدار بحسب البلدان والظروف[3]، وروى الشعبي عن شريح أنه كان يأخذ على القضاء خمسمائة درهم كل شهر ويقول: أستوفي لهم، وأوفيهم ويقول أيضاً: أجلس لهم على القضاء وأحبس نفسي ولا أرزق؟؟ ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة 72هـ، وسأل عن شريح، فعلم أنه امتنع عن القضاء في عهد ابن الزبير، فاستدعاه وقال له: وفقك الله، عُدْ إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذهما وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[4]، وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجراً ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى في إقامة شرعه، منهم مسروق بن الأجدع القاضي والمفتي (ت 63هـ) وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه في القضاء، وقالت امرأة مسروق: كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقاً، وقال القاسم: كان مسروق يقول: لأن أقضي يوماً فأقول فيه الحق أحب إلي من أن أرابط سنة في سبيل الله[5].

رابعاً: تسجيل الأحكام والإشهاد عليها:

ظهر في العهد الأموي لأول مرة تسجيل الأحكام القضائية التي يصدرها القاضي في سجله، وديوان المحكمة ليرجع إليه القاضي عند الحاجة، وأول من سجل الأحكام سُلَيم بن عنز التجيبي قاضي مصر في عهد معاوية، لما تخاصم إليه أشخاص في توزيع ميراث، فحكم بينهم، فغابوا مدة، واختلفوا وتناكروا وتجاحدوا الحكم، وعادوا يطلبون فصل الخلاف ثانية، فتذكر القاضي قصتهم، وكاشفهم بها، فاعترفوا، فأعادوا الحكم بينهم، وطلب من كاتبه أن يُسجل الأحكام القضائية وكتب لهم كتاباً بقضائه، وأشهد عليه[6].

وقال الكندي: فكان سليم أول القضاة بمصر سجّل سجلاً بقضائه[7] وكان سُليم - فيما وصل إلينا - أول من أشهد على الأحكام القضائية لتوثيقها، ومنع جحودها أو إنكارها، ثم توسع الأمر في العهد العباسي[8].

---

(1) القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، ص: 267.
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 167.
(3) المصدر نفسه، 176، 177.
(4) أخبار القضاة (2/ 227، 397).
(5) طبقات ابن سعد (6/ 82)؛ تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 178.
(6) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 180.
(7) المصدر نفسه، ص: 180.
(8) المصدر نفسه، ص: 180.

خامساً: أعوان القضاة:

يحتاج القضاة عادة إلى أعوان يساعدونهم في حسن التقاضي وسير القضاء، منهم كاتب القاضي أو كاتب المحكمة، أو كاتب الضبط، وأول ما ظهر في العهد الراشدي[1] ثم شاع استعماله فيما بعد، وظهر أعوان جدد في العهد الأموي بحسب الحاجة، وتطور الحياة، واتساع أعمال القاضي، وكثرة الدعاوى، ونذكر أهمهم:

1 - المنادي: وهو الذي يجلس عند القاضي، لبيان مكانة القاضي، ومعرفته، والمناداة على الخصوم، وكان يطلق عليه: «الذي على رأس القاضي» أو «صاحب المجلس»، وأول ما ظهر ذلك في عهد شريح، قال وكيع: عن عمرو بن قيس الماضي، قال: رأيت رجلاً كان يقوم على رأس شريح، وكان إذا تقدم إليه خصمان، فيقول: أيكما المدعي فليتكلم، وروى وكيع أيضاً: «كان شريح إذا جلس للقضاء لم يقم حتى: يُنادي: هل من خصم أو مستثبت؟ أو مستفتٍ»[2]؟

2 - الحاجب: وهو الذي يقف على باب القاضي، ليحجب عنه الناس أثناء النظر في الدعاوى، ويرتب دخول المتداعين عليه عند تزاحمهم وتعددهم، وقد يكون الحاجب هو المنادي الذي يقف على رأس القاضي، ويقوم بالعملين معاً، وقد يكون هو نفسه الجلواز «التابع للشرطي، أو أحد الشرطة القضائية»، وقد يكلفه القاضي القيام ببعض الأعمال في المحكمة، أو أداء بعض المهمات خارجها[3]، وذكر وكيع أن إبراهيم النخعي كان جلوازاً للقاضي شريح[4]، وكان على رأس شريح شرطي بيده سوط[5].

3 - الترجمان أو المترجم: اتخذ القضاة الترجمان لكثرة الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام، وتعارفت هذه الشعوب واختلطت مع بعضها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13] فإذا حصل نزاع أو اختلاف، أو دعوى، استعان القاضي بالترجمان الثقة المقبول لينقل أقوال الخصوم له[6].

سادساً: المراقبة والمتابعة:

إن تخلي الخلفاء والولاة عن ممارسة القضاء، والاقتصار على التعيين والعزل لم يمنع الخلفاء من مراقبة أعمال القضاة ومراجعة أحكامهم ومتابعة الدعاوى والأقضية التي تصدر

(1) نظام الحكم في الشريعة، ص: 259، تاريخ القضاء، ص: 180
(2) تاريخ القضاء عرنوس، ص: 128، تاريخ القضاء، ص: 181.
(3) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 181.
(4) المصدر نفسه، ص: 181، أخبار القضاة (2/ 215).
(5) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 181.
(6) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 423.

عنهم، لأن الخليفة هو المسؤول عن القضاء، وجميع ما يخص الأمة والأفراد في سياسة الدين والدنيا، وتفويض القضاء للقضاة لا ينجي الخليفة من المسؤولية في الدنيا والآخرة، لذلك كان الخلفاء يراقبون أعمال القضاة، ويتابعون ما يصدر عنهم، فإن وجدوا فيه خللاً أو انحرافاً، أو تقصيراً، تصدوا للتقويم والتصحيح[1]، وهذا ما نقلناه سابقاً عن النباهي قال: «ولما أفضى الأمر إلى معاوية جرى بجهده على سنن من تقدَّمه من ملاحظة القضاة، وبقي الرسم حذو ترتبه زماناً»[2].

سابعاً: مصادر الأحكام القضائية في العهد الأموي:

اعتمد القضاة على المصادر نفسها التي جرى عليها القضاة في العهد الراشدي، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، والإجماع، والسوابق القضائية والاجتهاد مع الاستشارة، وكان الالتزام بالقرآن والسنة هو الأساس، وهو ما تلتزم به الخلافة، وتتم عليه البيعة، وتطور الأمر في السوابق القضائية على الإشادة بقول الصحابة رضوان الله عليهم والتقيد غالباً بما صدر عنهم، لأنهم أقرب عهداً وصلة بمدرسة النبوة، ونزول الوحي، وخصوصاً أقضية الخلفاء الراشدين، كما بدأ يظهر في هذا العهد أثر العرف والعادة على أقضية الحكام، نظراً لاختلاف الأعراف والعادات في أصقاع الخلافة الأموية المترامية الأطراف، فكان القضاة ينظرون في الأقوال والدعاوى والأيمان والتهم بحسب الأعراف التي تظللهم وتحدد المراد من الألفاظ والمصطلحات[3].

وكان الفقهاء والقضاة والخلفاء يحرصون على التثبت في نقل النصوص، وصحة الأحاديث للاعتماد عليها، وحذر معاوية ﷺ من الاعتماد على الأحاديث المكذوبة، فخطب في وفد من قريش، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغني أن رجالاً فيكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله، ولا تُؤثر عن رسول الله ﷺ فأولئكم جهالكم[4].

وكان القضاة يعينون من الخلفاء والولاة، وتطلق يد القضاة، ولا يتقيدون برأي اجتهادي معين في أحكامهم، إلا ما ورد في النصوص والإجماع، وإلى حد ما إلى السوابق القضائية وقول الصحابة، ولم تكن المذاهب الفقهية قد ظهرت، ولم تدوَّن الأحكام، فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم، وبما يصلون إليه مع استشارة الفقهاء والعلماء والمجتهدين في كل مصر على حدة[5].

---

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 186.
(2) المصدر نفسه، ص: 186.
(3) المدخل الفقهي (1/ 150).
(4) إعلام الموقعين(1/ 63).
(5) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 190.

ثامناً: اختصاص القضاة، وتخصيص القضاء:

كان لاتساع الدولة الإسلامية في العهد الأموي، وكثرة الناس، وانشغال الخلفاء بالفتوحات، وإدارة الدولة، وإخماد الفتن الداخلية أن انصرفوا عن القضاء، وفوضوا جميع اختصاصاته إلى القضاة، وتنازلوا عن النظر في الجنايات والحدود، وكلفوا القضاة النظر فيها، وكان معاوية بن أبي سفيان أول من تنازل عن النظر في الجراح والقتل والقصاص إلى القضاة، فكتب إلى القاضي سُلَيم بن عِتر «قاضيه على مصر» يأمره بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، وكان سُليم أول قاض نظر في الجراح، وحكم بها، فكان الرجل إذا أصيب فجرح أتى إلى القاضي، وأحضر بينته على الذي جرحه، فيكتب القاضي بذلك الجُرح قصاصة على عاقلة الجارح ويرفعها إلى صاحب الديوان، فإذا حضر العطاء اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجَّم «يقسَّط» ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك[1].

وكان القاضي في العهد الأموي عام النظر في الحقوق والأموال، وأحكام الأسرة، والمواريث والقصاص والحدود، ويظهر ذلك جلياً من سيرة القضاة وأقضيتهم التي ذكرها وكيع في كتابه: «أخبار القضاة»، والكندي في كتابه «الولاة والقضاة»[2] وفي العهد الأموي ضُم إلى القاضي أعمال أخرى بعضها شبه قضائية، وبعضها إدارية، فمن أهم هذه الأعمال في ذلك العصر: النظر في أموال الأيتام، الإشراف على الأوقاف، الإفتاء[3].

تاسعاً: القضاة والأعمال المختلفة:

نظراً لما يتمتع به القضاة من الثقة، وما يتصفون به من العدل والنزاهة، والورع والتقوى، فقد أسند لهم الخلفاء في العهد الأموي عدة أعمال؛ هي:

1 - الشرطة: تولى القضاة رئاسة الشرطة بالإضافة إلى أعمالهم القضائية، فجمعوا بين ولاية القضاء وولاية الشرطة وذلك في عدة مدن إسلامية، فقد روى وكيع أن معاوية عزل سعيد ابن العاص عن المدينة سنة ثلاث وخمسين، ويقال: سنة أربع وخمسين في شهر ربيع، وأعاده مروان بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء، وكان شديداً صلباً في ولايته، ولما ولي الشُّرَط أخذ الناس بالشدة[4]، قال الكندي عن مسلمة بن مخلَّدَ أنه: قدم مسلمة الفُسطاط، فعزل السائب بن

(1) نظام الحكم في الشريعة، ص: 256، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 192.
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 193.
(3) المصدر نفسه، ص: 193، 194، 195.
(4) أخبار القضاة (1/ 118).

هشام بن كنانة العامري عن شُرطَه، وولّى عليها عابس بن سعيد، وعزل سُليمان بن عنز عن القضاء وجعله إلى عابس، فجمع له القضاء والشّرط، وهو أول من جمع له سنة ستين[1]، ولما توفي مسلمة سنة 62هـ، بعد أن مكث والياً على مصر أكثر من 15 سنة، وليها سعيد بن يزيد الأزدي في رمضان سنة 62هـ،فأقر عابس بن سعيد على القضاء والشُّرط جميعاً، ولما جاء عبد الرحمن بن عتبة بن جَحْدم الفهري أميراً على مصر أقر عابساً على الشُرط والقضاء. وذكر الكندي، أن مسلمة بن مخلّد والي مصر عين عابس بن سعيد على شُرطته، ثم جمع له الشُّرط والقضاء[2]، وذلك في أول سنة إحدى وستين[3].

2 - الإمارة: استعمل بعض القضاة ولاة في بعض الأحيان، كما كان الخليفة أحياناً ينيب القاضي مكانه في الإمارة إذا خرج عن دمشق، وكان كثير من الولاة يستخلفون القاضي على إدارة الأمور، وتصريف شؤون المصر أثناء غيابهم، أو خروجهم لمهمة، قال أبو زرعة: لما خرج معاوية إلى صفين استخلف القاضي فضالة بن عُبيد على دمشق[4].

عاشراً: أسماء القضاة في عهد معاوية:

1 - أشهر قضاة دمشق:

أ - فضالة بن عُبيد: الذي ولاه معاوية القضاء في الشام بترشيح أبي الدرداء ﷺ ، وبقي فضالة على القضاء حتى مات في خلافة معاوية سنة 53هـ، وحضر معاوية جنازته وحمل بجانب السرير، وكان معاوية يستخلفه على دمشق عندما يخرج منها[5]، وقضى فضالة بدرء الحد عندما أتاه رجل بسارق يحمل سرقته، فقال له فضالة: لعلك وجدتها، لعلك التقطتها، فقال له الرجل: إنّا لله وإنا إليه راجعون، إنه ليلقّنه، قال: إي والله، أصلحك الله، وجدتها، فخلّى سبيله، وأجاز الفقهاء تلقين المتهم في الحدود، كما فعل رسول الله ﷺ مع ماعز[6].

ب - النعمان بن بشير بن سعد: أبو إدريس الأنصاري الخزرجي، الصحابي الذي ولي القضاء بالشام بعد فضالة، وتوفي سنة 46هـ قتلاً بقرب حمص[7].

---

(1) تاريخ القضاء عرنوس، ص: 26، الولاء والقضاء، ص: 311 - 313.
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 196.
(3) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 196.
(4) قضاة دمشق، لابن طولون، ص: 413.
(5) أخبار القضاة (3/ 199، 201) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 198.
(6) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 199.
(7) المصدر نفسه، ص: 199.

2 - قضاة المدينة:

أ - **أبو هريرة الصحابي المشهور** ﷺ : قضى بالمدينة، لما رواه وكيع عن نعيم قال: شهدت أبا هريرة يقضي.. وأمر بالتسوية بين الخصوم، ورفض حبس مدين معسر، وحكم على قاذف بثمانين جلدة، وكان أبو هريرة يسكن المدينة حتى توفي فيها سنة 59هـ[1]، ولعله استقضي قبل عبد الله بن الحارث.

ب - **عبد الله بن الحارث بن نوفل**، وهو أول قاض في المدينة لواليها مروان بن الحكم في خلافة معاوية، وكان أول ما قضى حقاً على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان بن الحكم خيراً، وكان يقضي باليمين مع الشاهد، وتوفي سنة 84هـ، وكان من صلحاء المسلمين وفقهائهم[2].

جـ - **أبو سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف (ت 94هـ)** وهو من كبار التابعين، وكان يزعم عن نفسه أنه أفقه الناس، واستعمله سعيد بن العاص والي معاوية على قضاء المدينة، وكان يستحلف صاحب الحق مع الشاهد الواحد[3].

د - **مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف (ت 64هـ)** استقضاه مروان بن الحكم سنة 53هـ أو 54هـ وضمَّ إليه الشُّرط مع القضاء، وكان شديداً صلباً في ولايته، ولما ولي الشُّرط أخذ الناس بالشدة في جرائم القتل التي انتشرت في المدينة[4]، ولما مات معاوية واستخلف يزيد استعمل على المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان، فاستقضى طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو أحد الأجواد، ويقال له: طلحة الجواد[5].

3 - قضاة البصرة:

تولى القضاء في البصرة كثيرون، نذكر منهم: عُميرة بن يثربي الضبِّي الذي استقضاه عبد الله ابن عامر بن كُريز عامل معاوية على البصرة، وكان عميرة يحكم بضمان العارية، وبقي في القضاء حتى سنة 45هـ، فعزله زياد الذي ولي إمارة البصرة، وولي القضاء عمران بن حصين فاستعفاه بطلبه، وولي عبد الله بن فضالة ثم أخاه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى[6].

4 - قضاة الكوفة:

كانت الكوفة من أنشط المدن العلمية، وكانت مركز النشاط والحركة والعلم منذ أسست

(1) المصدر نفسه، ص: 200، أخبار القضاة (1/ 110) (1/ 114).
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.
(3) أخبار القضاء (1/ 116)، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.
(4) أخبار القضاء (1/ 118)، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.
(5) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.
(6) أخبار القضاة (2/ 3) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 204.

في عهد عمر ﷺ ، واتخذها علي ﷺ عاصمة، وكان من أشهر قضاة الكوفة شريح القاضي، فقد كان من عهد عمر واستمر في القضاء طوال العهد الراشدي، ومدة طويلة في العهد الأموي تزيد عن خمس وثلاثين سنة، وتوقف (في عهد ابن الزبير) ثم عاد إلى القضاء حتى استعفى من الحجاج فأعفاه سنة 78هـ[1]، ومن قضاة الكوفة في عهد معاوية ﷺ : مسروق بن الأجدع الهمداني، ولي لمعاوية في إمرة زياد القضاء، وكان من الفضلاء[2].

5 - قضاة مصر:

ومن أشهر قضاة مصر في عهد معاوية سُلَيْم بن عنز التجيبي وهو أول من ولي القضاء بمصر في أيام معاوية بن أبي سفيان ﷺ سنة أربعين للهجرة[3]، وعابس بن سعيد المرادي الذي عينه مسلمة بن مخلد على الشرطة، ثم عزل سُليم بن عنز عن القضاء، وجعله إلى عابس فجمع له القضاء والشُّرط[4]، هؤلاء هم أشهر القضاة في عهد معاوية ﷺ .

حادي عشر: ميزات القضاء في عهد معاوية والعهد الأموي عموماً:

من أهم ميزات وخصائص القضاء في العهد الأموي الآتي:

1 - بقي القضاء في العهد الأموي، كما كان في العهد النبوي والعهد الراشدي، في معالمه الأساسية، وتنظيمه الجوهري، ووسائله وأهدافه، وكان استمراراً لما سبق في إقامة الحق والعدل، والنزاهة والموضوعية، مع مراعاة التطور والتوسع في الخلافة الأموية.

2 - استعمل القضاة في العهد الأموي وسائل الإثبات الشرعية نفسها المعمول بها في العهد الراشدي، مع التوسع في الفراسة، واستعمال الحيل على المتهم، لكشف الحق، والوصول إلى الصواب والعدل[5].

3 - ظهرت في العهد الأموي مصادر جديدة للأحكام القضائية، وهي: العرف، وقول الصحابي، وإجماع أهل المدينة أحياناً، بالإضافة إلى المصادر الأصلية في العهد النبوي وهي: القرآن الكريم، والسنة الشريفة، والمصادر الاجتهادية في العهد الراشدي وهي: الإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأي[6].

---

(1) أخبار القضاة (2/ 184)، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 207.
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 207.
(3) المصدر نفسه، ص: 209.
(4) المصدر نفسه، ص: 209.
(5) المصدر نفسه، ص: 213.
(6) المصدر نفسه، ص: 214.

4 - كان الخلفاء يعينون القضاة في الشام، وقد يرشحون بعض القضاة للأقاليم، وكان الولاة في الأمصار يعينون القضاة، ويعزلونهم.

5 - حرص الخلفاء والولاة على اختبار أحسن الناس لولاية القضاء، من العلماء والفقهاء والشرفاء وخيرة القوم، الذين تتوفر فيهم صفات القاضي الشرعية ، ويخشون الله تعالى، ويلتزمون بالحق والشرع، ويقيمون العدل بين الناس.

6 - طرأت تغييرات بارزة على القضاء في العهد الأموي، وأضيفت لأول مرة، وهي:

أ - تسجيل الأحكام خوفاً من النسيان، ومنعاً للتجاحد،ووضعها في ديوان خاص.

ب - الإشراف على الأوقاف من أجل حسن تطبيقها.

جـ - النظر في أموال اليتامى ومراقبة الأوصياء.

د - ترتيب الدعاوى، واستعمال الرقعة لإدخال الخصوم والمناداة على الناس بالترتيب.

هـ - وجود المساعدين للقضاة، وهم: الأعوان، والحاجب والشرطي في مجلس القضاة.

و - الاستعانة بالشرطة لتنفيذ الأحكام القضائية، وإجراءات الخصومة.

7 - كان القضاة مجتهدين في إصدار الأحكام القضائية، ولهم الحرية المطلقة في استنباط الأحكام من القرآن والسنة ومقاصد الشريعة، وبقية المصادر، ولم يتقيدوا برأي الخلفاء، ولم يلتزموا بمذهب فقهي، ولكن هذا لم يمنعهم من مشاورة العلماء والفقهاء، ومشاركتهم في المجالس القضائية[1].

8 - لم يتأثر القضاة بسياسة الحكام والخلفاء، وكان القضاة مستقلين في عملهم، ولم تؤثر عليهم الميول السياسية، والحركات الثورية، والخلافات الفكرية، والفتن الداخلية[2].

هذه هي أهم ميزات القضاء في العهد الأموي.

ثاني عشر: خطاب عمر بن الخطاب ﷺ إلى معاوية في القضاء:

كتب عمر إلى معاوية ﷺ: «أما بعد فإنني كتبت في القضاء كتاباً لم آلك - ونفسي - فيه خيراً، . .» ثم إن عمر قال:

1 - الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك: إذا تقدم إليك الخصمان، فعليك بالبينة العادلة، واليمين القاطعة فهو الطريق للقاضي الذي لا يعلم الغيب.

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 213 إلى 215.

(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 215.

فمن تمسك به سلم له دينه، ونال أفضل الحظ والثواب في الآخرة[1]. فمعنى اليمين القاطعة: أي القاطعة للخصومة والمنازعة[2].

2 - وأدنِ الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه[3]، ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوي، وإنما أراد الأمر بالمساواة، لأن القوي يدنو بنفسه لقوته، والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوي يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك. فعلى القاضي أن يدني الضعيف ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه، وينبسط لسانه، فيتكلم بحجته[4].

3 - «وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تتعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، فربما ضيع حقه من لم يرفع به رأسه»[5]. قيل: هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام في مجلس القضاء، فإن الغريب قلبه مع أهله، فينبغي للقاضي أن يقدمه في سماع الخصومة، ليرجع إلى أهله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهد الغرباء. وقيل: مراده أن الغريب منكسر القلب، فإذا لم يخصه القاضي بالتعاهد عجز عن إظهار حجته، فيترك حقه، ويرجع إلى أهله، والقاضي هو السبب، لتضيع حقه، حين لم يرفع به رأسه، ثم قال:

4 - «وعليك بالصلح بين الناس، ما لم يستبن لك فصل القضاء»[6]. وفيه دليل أن القاضي مندوب إليه أن يدعو الخصم إلى الصلح، خصوصاً في موضع اشتباه الأمر[7].

المبحث السابع
الشرطة في عهد معاوية

شهد عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ تطوراً كبيراً في نظام الشرطة من جهة نموها وترسخها كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة وبصورة لم تُعرف من قبل، لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسؤولة مسؤولية كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام في جميع الأمصار الإسلامية، لقد أصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصي من

(1) المبسوط للسرخسي (16/ 66) : تهذيب ابن عساكر (6/ 306).
(2) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 465).
(3) المبسوط للسرخسي (16/ 66).
(4) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 465).
(5) المصدر نفسه (2/ 465).
(6) المصدر نفسه (2/ 465).
(7) المصدر نفسه (2/ 465).

جهة، وحفظ الأمن والنظام في الداخل من جهة أخرى، يضاف إلى هذا كله، أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموي وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له كالخوارج والشيعة وغيرهما، التي كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل، وقد استعمل معاوية ﷺ الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصياً، ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التي قام بها الخوارج لاغتيال معاوية كان لها دور كبير في دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة، وخصوصاً أن علياً وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها، قُتل على أثرها أمير المؤمنين عليّ، وكان ذلك عام 40هـ، ومنذ ذلك الحين ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة، وحتى أوقات الصلوات، كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من مناوئيه[1].

أولاً: الشرطة في العراق:

يعتبر المغيرة أول والٍ يعينه معاوية في الكوفة، وقد استعان برجال الشرطة لغرض بسط الأمن، وعين صاحب شرطة عُرف بشراسته وقسوته وكان يُدعى «قبيصة بن دمّون»[2]، ومن الحوادث التي تبين مدى فعالية الشرطة في حفظ الأمن والنظام ما أورده الطبري حول صراع المغيرة مع الخوارج، وذلك حين أخبره صاحب الشرطة باجتماعهم في الكوفة لإثارة القلاقل والاضطرابات، فأصدر المغيرة أوامره إلى صاحب الشرطة لمحاصرة مكان الاجتماع، وبعد أن ألقى القبض عليهم أودعهم السجن.

وفي البصرة، عين معاوية عبد الله بن عامر والياً عليها ثم عزله في عام 54هـ وعين زياد بن أبيه والياً على البصرة. وقد تبين لزياد عند وصوله البصرة مدى التدهور الحاصل في الأمن، فذكره وشدّد عليه في خطبه التي افتتح بها ولايته، جرياً على العادة في ذلك الوقت فألقى خطبة طويلة سيأتي الحديث عنها بإذن الله، بين فيها أسلوبه الذي سوف يتبعه في معالجة التدهور الأمني، ومن قراءة تلك الخطبة تبين أن زياد كان مصمماً على إقامة الأمن والنظام بغض النظر عن الوسيلة التي تحقق ذلك الهدف[3]، ولو كانت بالعسف وخصوصاً حين يقول: وإني أقسم بالله لآخذنّ الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أُنج يا سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم[4].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 65)، الشرطة في العصر الأموي، ص: 36.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 37.
(3) الشرطة في العصر الأموي، ص: 38.
(4) تاريخ الطبري (6/ 135).

ويروي البلاذري كيف استتب الأمن في البصرة في عهد زياد، وذلك في حادثة مفادها أن زياداً سمع جلباً وأصواتاً بين العامة، فسأل عن السبب، فقيل له: إنّ فلاناً قد استأجر من يحمي له بيته، وذلك نظراً لعدم وجود الشرطة، وانتشار السرَّاق[1]، وفي اليوم التالي أمر زياد صاحب الشرطة بأن تقوم الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء[2].

ويضيف البلاذري: أنّ الشرطة قد قتلت ما يقارب الخمسمائة نفر من لص ومنتهب للبيوت[3]، ويعتبر زياد أول من منع التجول وذلك بمنع العامة من الخروج من منزلهم ليلاً[4]، وكان يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ولا يرى إنساناً إلا قتله. فأخذ ليلة أعرابياً، فأتى به زياداً فقال: هل سمعت النداء؟ - يقصد نداء منع التجاول ليلاً - قال: لا والله، قدمت بحلوب[5] لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع، فأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير قال: أظنك والله صادقاً، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه[6]. ومثل هذا الفعل الظالم لا تقرّه الشريعة مهما كانت التبريرات[7].

وعلى ما يبدو أن قتل البدو لم يكن لمجرد الرغبة في القتل ذاته، بل تمّ لإقناع أهل البصرة بجدية الوالي في تنفيذ أوامره، وأن لا أحد ينجو من العقوبة إذا خرق القانون، حتى لو كان بريئاً لا ذنب له، كما سبق وهدّد في خطبته البتراء.

لقد كان الهدف النهائي عند زياد، إقرار هيبة الدولة والحصول على طاعة العامة، ولو عن طريق الإرهاب، وبذلك تستقيم الأمور في البصرة حيث ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان في تطبيق العقاب[8].

ولم يكن خافياً على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية، لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التي تسمح له بفرض هيمنته، منها: زيادة عدد الأفراد العاملين في الشرطة فصعّد عددهم[9] حتى وصل أربعة آلاف فرد، وعين اثنين في منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد[10].

إن ارتفاع عدد رجال الشرطة إلى أربعة آلاف يدل على أمرين:

أولهما: - شدة الاضطراب الداخلي.

---

(1) أنساب الأشراف (4/ 171).
(2) المصدر نفسه (4/ 171).
(3) المصدر نفسه (4/ 171).
(4) الشرطة في العصر الأموي، ص: 39.
(5) الحلوب: ذات الحليب.
(6) تاريخ الطبري (6/ 138).
(7) ولاية الشرطة في الإسلام، نمر بن محمد الحميداني، ص: 123.
(8) الشرطة في العصر الأموي، ص: 40.
(9) المصدر نفسه، ص: 40.
(10) تاريخ الطبري (6/ 138).

الثاني: - أن الشرطة كانت ترفد الجيش في كثير من الأحيان[1].

وبلغ من دقته في عهده أنه قال: لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه[2]، وترتب على ذلك ما قاله الطبري: . . . وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنَّة، وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه، خوفاً شديداً، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدرّ العطاء، وبنى مدينة الرزق[3]، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد واستطاع أن يفرض النظام الأمني حيث حقق للأمويين رغبتهم في استقرار النظام والأمن في كل من البصرة والكوفة، وحيث أصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية[4].

ثانياً: الشرطة في الأقاليم الأخرى:

عند مقارنة مثلاً مصر بغيرها من الأمصار الإسلامية كالبصرة مثلاً، نجد أن الشرطة لم تلعب الدور نفسه، وذلك لبعد مصر عن الاضطرابات التي يحدثها عادة الخوارج، وكذلك تذكر المصادر في العادة حرص الولاة عند اختيار صاحب الشرطة، وقد عين مروان بن الحكم والي المدينة «مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف» في منصبي صاحب الشرطة والقضاء في آنٍ واحد - كما مرّ معنا - وكان ذلك في عهد معاوية[5]. ويروي ابن سعد أن مصعباً كان شديداً على المذنبين والخارجين على القانون[6]، وقد طلب مصعب من الوالي مروان بن الحكم أن يزوده بعدد كبير من أفراد الشرطة، إذا كان يريد الحفاظ على الأمن في المدينة، حيث لم يكن عدد الشرطة المتوفر كافياً لهذه المهمة[7]، وأجابه مروان إلى طلبه وأرسل إليه مائتي شرطي، وظل مصعب في منصب صاحب الشرطة حتى وفاة معاوية[8].

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ والإسلام (2/ 636).
(2) المصدر نفسه (6/ 139).
(3) المصدر نفسه (6/ 138).
(4) الشرطة في العصر الأموي، ص: 41.
(5) الشرطة في العصر الأموي، ص: 43، الطبقات (5/ 158).
(6) الطبقات لابن سعد (5/ 158).
(7) الشرطة في العصر الأموي، ص: 43، الأغاني (5/ 74).
(8) المصدر نفسه، ص: 43.

ثالثاً: واجبات الشرطة:

كان للشرطة في الدولة الأموية مكانة مميزة بسبب الواجبات المهمة التي كانت تقوم بها هذه المؤسسة تجاه السلطة والمجتمع، ومن هذه الواجبات:

1 - حماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم في الداخل:

أول من استخدم الشرطة لحمايته الشخصية من الاغتيال، الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية، الذي خاض صراعاً (سياسياً - عسكرياً) عنيفاً مع معارضيه من الخوارج وغيرهم، وكان الشرطة يحرسون معاوية بشكل دائم في حله وترحاله، بل حتى وقت الصلاة كان هناك حارس يقف عند رأسه وهو يصلي في المحراب، وعلى ما يبدو أن الخليفة كان يسير بين يديه صاحب الشرطة متقلداً كامل سلاحه، وكذلك تقوم الشرطة بتوفير الحماية للولاة في الأمصار المختلفة، بالطريقة السابقة نفسها، وكما ذُكر سابقاً أن زياد بن أبيه كان يستخدم الشرطة لأمنه الشخصي، وكان صاحب الشرطة هو المسؤول الأول عن سلامة الوالي[1].

إن ظهور صاحب الشرطة في مقدمة موكب الخليفة أو الوالي في الأماكن العامة ليس دليلاً فقط على الحماية، بل لإشعار العامة أيضاً بالهيمنة والسلطة، إلى جانب ذلك كانت الشرطة أداة بيد الخليفة والولاة لفرض سلطة الدولة على الذين يحاولون التمرد عليها أو معارضتها[2]، وكانت تعين الخليفة على جمع المعلومات، فقد كان معاوية ﷺ قد بلغ من اهتمامه في الحصول على أخبار عماله ورعيته أن بثَّ عيونه في كل قطر وكل ناحية، فكانت تصله الأخبار أولاً بأول فانتظم له أمره، وطالت في الملك مدته[3]، وحذا زياد بن أبيه حذو معاوية، ومما يحكى عنه: أن رجلاً كلمه في حاجه له فتعرف عليه وهو يظنّ أنّه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير أنا فلان ابن فلان. فتبسم زياد وقال: أتتعرّف إليّ وأنا أعرف منك بنفسك، والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البُرد[4] الذي عليك وهو لفلان.. فبُهت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه[5].

2 - معاقبة المذنبين والخارجين على القانون:

الشرطة بحكم كونها القوة الرئيسة فهي المسؤولة عن حفظ الأمن، والنظام داخل المدن، إضافة إلى واجبها في فرض القانون، ولكن الأحوال الاجتماعية في المدن الكبرى

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 138) الدولة الأموية في العصر الأموي، ص: 79.
(2) الشرطة في العصر الأموي، ص: 79.
(3) المحاسن والمساوئ، للبيهقي، ص: 143 - 144.
(4) البرد: كساء مخطط يلتحف به.
(5) المحاسن والمساوئ، ص: 144.

كانت تدفع الشرطة إلى اتخاذ إجراءات مشددة تجاه العامة، وقد بين زياد بن أبيه في خطبته البتراء خطورة التجاوزات التي حدثت من الناس فقال: . . . من بُيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه، . . . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً، غرقناه، ومن حرّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً[1]. . . من هذه الخطبة يتبين مدى التدهور الحاصل في البصرة، من خلال طبيعة الجرائم التي كان يرتكبها بعض المنحرفين من أهلها قبل قدوم زياد، وحين انتهى من خطبته أمر صاحب الشرطة بحراسة الطرقات وقتل كل من يوجد خارج منزله ليلاً[2] ويروي البلاذري أن زياداً لم يتردد في تنفيذ ما توعّد به[3] حرفياً.

3 - تنفيذ العقوبات الشرعية:

من الواجبات التي كانت الشرطة تقوم بها: تنفيذ الحدود الشرعية، التي يأمر بها القضاة، ضد كل من يظهر منه فساد في المجتمع الإسلامي، والحدود الشرعية - كما هو معروف - مذكورة في القرآن الكريم، والسنة النبوية بينت ذلك، وكان الصحابة والتابعون ﷺ لديهم غيرة وحرص على أوامر الدين وتنفيذها، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك: أنّ عبداً سرق وديّاً[4] فوجدوه، فاستعدى على العبد مروان بن الحكم[5]، فسجن مروان العبد، وأراد قطع يده، فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج ﷺ، فسأله عن ذلك، فأخبره: أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا قطع في ثمر ولا كثر**»[6]، فقال الرجل: فإنَّ مروان بن الحكم أخذ غلاماً لي وهو يريد قطع يده، وأنا أحبّ أن تمشي معي إليه فتخبره بالذي سمعت من رسول الله، فمشى معه رافع إلى مروان بن الحكم، فقال: أخذت غلاماً لهذا، فقال: نعم، فقال: ما أنت صانع به؟ قال: أردت قطع يده، فقال له رافع: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا قطع في ثمر ولا كثر**»، فأمر مروان بالعبد فأرسل.

ويستفاد من هذه اللمحة كذلك، احترام الولاة والعمال للصحابة الكرام، وعدم التعرّض لتصرّفاتهم ما دامت منبثقة من الحرص على تنفيذ أمر الله ورسوله، حتى وإن كانت داخلة

(1) تاريخ الطبري (6/ 136).
(2) الشرطة في العصر الأموي، ص: 83، أنساب الأشراف (4/ 172).
(3) الشرطة في العصر الأموي، ص: 83.
(4) الودي: الواحدة وديّة، وهي صغار النخل، الفائق في غريب الحديث (4/ 51).
(5) ولاية الشرطة في الإسلام، ص 120.
(6) الكثر: بفتح الكاف والمثلثة، هو جمار النخل، أي وعاء الطلع في جوفه، وهو يؤكل. انظر: الفائق في غريب الحديث (3/ 247).

ضمن مهام الوالي[1]، ومن مظاهر الغيرة على أوامر الدين وتغليب أمر الله على ما سواه، امتناع والي شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف ﷺ من هدم دور بني هاشم، ومن كان في حيّزهم، ودور بني أسد بن العزّى، والشدّة عليهم، وذلك لموالاتهم الحسين بن علي وابن الزبير، وامتناعهم عن بيعة يزيد، إذ قال مصعب لأمير المدينة عمرو سعيد[2]: أيها الأمير إنّه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل، فقال له الأمير: انتفخ سحرك يا ابن أم حريث، إليّ سيفنا، فرمى إليه بالسيف وخرج عنه[3]. وهذا الفعل يدل على قوة إيمان مصعب ، وأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[4]، ومن واجبات الشرطة: مساعدة الجيش ضد أعداء الدولة[5]، وتنفيذ أحكام الإعدام والتعذيب للمناوئين السياسيين وكل ما يتصل بالسجناء عند صاحب السجن[6]، وإن كانت الواجبات الأخيرة تتضح ملامحها في عهد الخلفاء الذين بعد معاوية أكثر.

رابعاً: قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة:

تعتبر الشرطة العمود الفقري للجهاز الأمني في الدولة الأموية، وكانت المهمة الرئيسة لهم: حفظ الأمن الداخلي بالدرجة الأولى، ومع ذلك عرف العصر الأموي مؤسسات أخرى لعبت دوراً مشابهاً ومكملاً للشرطة، وهذه المؤسسات هي:

1 - الحرس:

استخدمت كلمة حرس في بدايات العصر الأموي لوصف كل من يقوم بمهمة الحراسة بغض النظر عن المكان أو الشخص الذي يحرسه، وفي العصر الأموي كان الحرس يمثلون تلك الفئة التي تقوم بمهمة حماية الخلفاء والولاة، وعلى ما يظهر أن معاوية كان أول خلفاء بني أمية يتخذ الحرس لحمايته الشخصية من احتمال الاعتداء عليه من قبل الخوارج وغيرهم، وفي خلافة معاوية استخدم الولاة الحرس، كقوة أمنية داخلية إلى جانب الشرطة، وقد استخدم زياد بن أبيه، خمسمائة رجل في قوات الحرس الخاصة به، وعين عليهم رجلاً من بني سعد أطلق عليه صاحب الحرس[7]، ومنذ ذلك الحين وخلفاء بني أمية يعينون من يثقون به[8].

---

(1) ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 121.
(2) نسب قريش، ص: 268، ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 122.
(3) نسب قريش، ص: 268، ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 122.
(4) الشرطة في العصر الأموي، ص: 122.
(5) المصدر نفسه، ص: 97.
(6) المصدر نفسه، ص: 97 إلى 109.
(7) تاريخ الطبري نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 128.
(8) الشرطة في العصر الأموي، ص: 128.

وخلاصة القول: أن مفهوم الشرطة يتسع إلى الدرجة التي يضم فيها نشاط الحرس تحت سلطته، في حين أن الحرس لا يدخلون ضمن الشرطة[1]، ويورد الجاحظ شطر بيت من الشعر: «كأنه شرطي بات في حرس». للدلالة على التفرقة بين المؤسستين[2].

2 - الحرس من غير العرب:

عرف العرب، قبل قيام الدولة الأموية، بعض الألفاظ الأجنبية التي تطلق على الحرس الذين كانوا يحرسون بيت المال في البصرة[3]. وهذه الألفاظ هي: الأساورة والسيابجة والزطّ، ويشرح البلاذري هذه الألفاظ فيقول: إنّ الأساورة من الفرس، أما السيابجة والزطّ فينحدرون على ما يظهر من الهند[4].

ويتضح من تاريخ الخلافة الأموية أن الولاة كانوا يستخدمونهم لضرب الثورات التي تقوم بها المعارضة، بين حين وآخر، وكان يُطلق على هذه العناصر لفظ: البخارية، تبعاً لرواية البلاذري أيضاً: أن والي خراسان عبيد الله بن زياد، أسر في إحدى المعارك عدداً كبيراً من أهل بخارى، وجعل من البصرة مستقراً لهم، وأجرى لهم من الأعطيات ما كان يدفعه نفسه للقبائل العربية، وذلك حين أصبح والياً على العراق[5].

وقد استخدم عبيد الله هذه القوة الجديدة لمساندة قوة الشرطة للقضاء على ثورة الخوارج في العراق[6].

وأما ابن سعد، فيذكر أن البخارية قد استعملوا أول الأمر كقوة أمنية، على يد والد عبيد الله حين كان والياً على العراق، ويضيف ابن سعد: أن زياداً استخدم البخارية لمساعدة الشرطة في محاولتهم للقبض على حجر بن عدي[7] رضي الله عنه. ويشيد البلاذري بمهارة البخارية في الرمي بالقوس[8]، ويظهر من مراجعة المصادر التاريخية أن استعمال هذه الفرقة كقوة بشرية لم يكن مقتصراً على الولاة، بل وجد أنهم كانوا يقومون بخدمة الأشراف، ففي مدينة

---

(1) المصدر نفسه، ص: 130.
(2) الحيوان (3/ 158) الشرطة في العصر الأموي، ص: 130.
(3) الشرطة في العصر الأموي، ص: 130.
(4) المصدر نفسه، ص: 130.
(5) المصدر نفسه، ص: 130.
(6) طبقات ابن سعد (6/ 219) الشرطة في العصر الأموي، ص: 131.
(7) طبقات ابن سعد نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 131.
(8) البلاذري، الأنساب نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 131.

البصرة مثلاً، كان أبناء عبد الله بن عامر والي العراق في السابق، يستخدمون البخارية كحرس خاص لحمايتهم الشخصية[1].

3 - العرفاء:

ونظراً لما يتمتع به العرفاء من مكانة لدى الولاة، فإن بعضهم يستطيع من الأمور ما لا يقدر عليه غيره، ونظراً لكون العريف مسؤولاً عن مراقبة العامة وتبليغ السلطات عن الحركات المشبوهة أو عن الأفراد الذين يُشك في ولائهم للسلطة... ولذلك لم يكن لهذا المنصب شعبية، إلّا أن ذلك لم يمنع كبار القوم من توليه، إذ يورد ابن سعد في طبقاته أسماء كثيرة تولت مهام هذا المنصب[2].

4 - صاحب الاستخراج أو العذاب:

شهد العهد الأموي قيام جهة خاصة مهمتها استخراج الأموال من الذين يختلسونها بحكم مناصبهم الرسمية، وكان يطلق على الشخص المكلف بمهمة تعذيب المختلسين لكي يقروا بمكان وجودها، لقب «صاحب الاستخراج»، ويروي ابن قتيبة أن هذه المهنة ظهرت في عهد زياد بن أبيه، الذي كان دائم التحذير لمن يعينهم لمساعدته في الإدارة، وكان لا يتردد في إعفائهم من مناصبهم إذا ظهرت منهم خيانة، ويكون العزل بعد إيقاع العقوبة بهم[3]، ويورد كثير من المؤرخين حوادث تتصل بالولاة الذين استخدموا صاحب الاستخراج لاسترداد الأموال المختلسة من المختلسين، أو ممن ظهرت عليهم أمارات الخيانة أو ما شابه ذلك من أمور. من ذلك أن والي العراق عبيد الله بن زياد عزل من مساعديه رجلاً يدعى عبد الرحمٰن واستخلص منه مائتي ألف درهم[4]، كما استخلص مبلغ مئة ألف درهم اختلسها أحد العاملين في إدارته[5].

5 - جهاز الحسبة:

والمقصود هنا بالحسبة: المعنى الضيق، أي عملية الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها، وقد كان من مهام المحتسب في الدولة الأموية جباية ضرائب

(1) البلاذري، الأنساب نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 131.
(2) المصدر نفسه، ص: 133.
(3) عيون الأخبار (1/ 55) الشرطة في العصر الأموي، ص: 134.
(4) الشرطة في العصر الأموي، ص: 134.
(5) المصدر نفسه، ص: 134، نقلاً عن الأنساب للبلاذري.

المبيعات وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة[1]، إضافة إلى مسؤوليات السوق والتي من أبرزها[2]:

أ - التأكد من دقة الأوزان، والمكاييل، والمقاييس المستعملة في عمليات السوق، منعاً لحدوث غبن في التعامل.

ب - التفقد المفاجئ لعيار الحبات والمثاقيل، لضمان عدم الإخلال بها.

جـ - منع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية.

د - منع حالات الاحتكار إن وجدت، وإجبار المحتكر على بيع ما احتكره.

ووفق هذا المفهوم نجد أن الحياة الاقتصادية في بداية الدولة الأموية كانت بسيطة، وعليه فقد سار ولاة الأقاليم على نهج الخلافة الراشدة فكان الولاة - كل في إقليمه - يباشر الحسبة بنفسه[3]. لكن هذا لم يمنع من ظهور وظيفة العامل على السوق في مدينة البصرة في عهد ولاية زياد بن أبيه (45 - 53هـ)[4]. ويمكن القول - من خلال التتبع - بأن نظام الحسبة كان موجوداً منذ بداية العصر الأموي، وإن لم يكن يحمل لفظ الحسبة، إنما دور المحتسب في تنظيم السوق كان متواجداً طوال العصر الأموي، وقد نما النظام وتطور بما يوافق تطور قطاع التجارة، والأسواق، فيلاحظ أنه في بداية الأمر كان الوالي يتولى بنفسه أعمال الحسبة ثم تطور الأمر لأن يكون هناك شخص معين وظيفته الإشراف على السوق، ثم تطور الأمر ليكون لهذا المعين أعوان يعينونه في عمله[5].

6 - نظام المراقبة:

ظهر هذا النظام في دمشق في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، في عدة صور:

أ - إلزام بعض مناوئيه السياسيين بأداء الصلاة في الجماعة في مساجد معينة[6]. ويشبه هذا الإجراء ما هو معمول به في بعض الدول المعاصرة من إلزام المشبوهين بالتردد على مراكز الشرطة في أوقات محددة[7].

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 223.
(2) الإدارة في العصر الأموي، ص: 223.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 223.
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 224.
(5) المصدر نفسه، ص: 224.
(6) ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 125.
(7) المصدر نفسه، ص: 125.

ب - إسكان بعض مناوئيه في مساكن خاصة أعدّها لهم في دمشق - وغيرها - لتسهل عليه مراقبتهم.

جـ - إحكام المراقبة الشخصية على الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام[1].

7 - مؤسسة الدرك:

والدرك في الاصطلاح: مؤسسة تضم قوى الدولة العاملة في سبيل الأمن خارج حدود المدن الكبير[2]، وفي الطبري نص يفيد اهتمام زياد عام 45هـ، أي أيام معاوية - بالسُّبلُ - أي الطرق - جاء فيه: قيل لزياد: إن السبل مخوفة. فقال: لا أعاني شيئاً سوى المصر، حتى أغلب على المصر وأصلحه، فإن غلبني المصر، فغيره أشد غلبة، فلما ضبط المصر تكفل ما سوى ذلك، فأحكمه[3]. وكان يقول: لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه[4]. وهذا لا يكون إلا إذا كان رجاله متمكنين من الطرق والسبل[5]. وقد طرح زياد نظرية أمنية مفادها التمكن أولاً من داخل الأمصار ثم التوسع لما حولها من طرق وسبل.

هذه بعض الملامح والمعالم الكبيرة عن نظام الشرطة في عهد معاوية ﷺ.

المبحث الثامن

الولاة والإدارة في عهد معاوية ﷺ

حاول معاوية ﷺ طيلة فترة خلافته أن يجعل أسلوب حكمه في وضع بين المركزية واللامركزية. فقد اتخذ من دمشق عاصمة للدولة، وغدت المركز الرئيس الذي تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة، أما ترتيب أمور الولايات داخلياً فقد ترك معاوية ﷺ للولاة ليقوموا به كل حسب خبرته وجدارته، على أن يكونوا جميعاً مسؤولين أمام معاوية ﷺ مسؤولية مباشرة، ومحاسبين على كل عمل يقومون به.

ولعل من ضمن الأسباب التي حدت بمعاوية لأن يتخذ من دمشق عاصمة للدولة الأموية هو: معرفته الجيدة بأهل الشام وثقته التامة فيهم وفي ولائهم له، فقد أمضى معاوية ﷺ هناك قرابة عشرين عاماً أميراً على بلاد الشام، كان خلالها يتمتع خلالها بشعبية كبيرة بينهم، ولعلّ

(1) ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 125.
(2) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 643).
(3) تاريخ الطبري (6/ 139).
(4) المصدر نفسه (6/ 139).
(5) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ (2/ 644).

معاوية ﷺ كذلك كان يشعر أن استمرار دولة الأمويين يعتمد في درجة كبيرة على مدى المساعدة التي يقدمها إليه أهل الشام خاصة، كان معاوية ﷺ يعي هذه المسائل جيداً ويعيرها جلّ انتباهه، لذلك حاول جهده منذ البداية أن يعمل على حفظ التوازن بين رجالات القبائل العربية المختلفة في بلاد الشام، وعلى درجة الخصوص القبائل اليمانية والقبائل القيسية[1]، وقد عمل معاوية ﷺ كل ما في استطاعته لإيجاد التوازن بين مصالح الطرفين في بلاد الشام، فقد كان في خدمة معاوية ﷺ رجالات من القيسية أمثال: الضحاك بن قيس الفهري، وحبيب بن مسلمة الفهري، مثلما كان هناك رجالات من اليمانية أمثال مالك بن هبيرة السكوني، وشرحبيل بن سمط الكندي وحسان بن بحدل الكلبي وغيرهم، كما أن معاوية ﷺ حصل على مساعدات من كلا الطرفين إبان فترتي ولايته وخلافته، وكانوا يحاربون إلى جانبه في جيش واحد وتحت إمرة واحدة[2].

وكانت سياسة معاوية تقوم على الاستعانة بأفراد من أقاربه أبناء البيت الأموي مثل: عنبسة بن أبي سفيان، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص ابن أمية، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك[3]، وعمرو بن سعيد بن العاص[4]، وغيرهم. كما حرص معاوية ﷺ على اختيار أعوانه وولاته من ذوي التجارب الواسعة من المسلمين، كعبد الله بن عامر بن كريز، والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير الأنصاري، ومسلمة بن مخلد الأنصاري[5]، وغيرهم. ولم تكن المحاباة هي الأساس الأهم والأوحد في انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم، وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر ﷺ ورأى أن يستفيد من جهودهم ومواهبهم، ولاسيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام[6].

ونلاحظ أن معاوية استعان بأهل الصحبة والكفاية والولاء ولاة على الأمصار، ومع أن معاوية ﷺ اختار بعض أعوانه من أهل بيته، يولّيهم الولايات، إلّا أنه كان يعاملهم بحذر شديد إلى أن يطمئن لهم، ويقتنع بمقدرتهم الإدارية، فقد كان يختارهم أول الأمر لولاية مدن صغيرة كالطائف[7] مثلاً، فإذا ما أظهر أحدهم مقدرة إدارية، فإن معاوية ﷺ يضم إليه مكة

(1) خلافة معاوية بن أبي سفيان، العقيلي، ص: 70.
(2) المصدر نفسه، ص: 73.
(3) البلاذري، أنساب الأشراف نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلي، ص: 73.
(4) خلافة معاوية، ص: 73، نقلاً عن أنساب الأشراف (4/ 160).
(5) خلافة معاوية، العقيلي، ص: 74.
(6) الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم العدوي، ص: 74.
(7) خلافة معاوية، للعقيلي، ص: 74.

لتكون تحت إشرافه ثم يتبعها بالمدينة وعند ذلك يقال: هو قد حذق[1]. وغني عن البيان أن الطائف كانت مدينة مهمة في ذلك الوقت حيث تتمركز فيها قبيلة ثقيف[2] القوية، وأن من يستطيع من الولاة أن يسيطر على الطائف - سياسياً واقتصادياً - فإن بقية المدن تسهل السيطرة عليها بعد ذلك.

وتشير «نجدة خمَّاش» إلى أن معاوية ﷺ جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرّب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرّج في تلك الإدارة وفق خطوات مقررة[3].

وقد اتبع معاوية ﷺ أسلوباً مميزاً في معاملته لبني أهله ممن يستعين بهم. فقد كان يحاول أن يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض، وذلك كي يتجنب أي تحالف ضده[4].

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ تمتع رعايا الدولة من غير المسلمين بمنتهى التسامح والرفق، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر. فقد كانوا يعملون في مختلف الوظائف الحكومية، ذلك أن معاوية ﷺ أبقى على النظم البيزنطية والقبطية التي كان معمولاً بها في الشام ومصر والمغرب. كما أبقى على النظم الفارسية في العراق وخراسان. وكان ترك معاوية ﷺ هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين في أوائل العهد الأموي، وعلاوة على ذلك فقد كان طبيب معاوية ﷺ الخاص، ويدعى ابن أُثال[5]، غير مسلم، وكذلك سريج (سرجون) بن منصور الرومي مستشاره المالي[6]، وابن مينا[7]، وابن النضير[8]، مولاه من عماله على الصوافي، كانوا أيضاً من سلالة غير المسلمين وأسلم بعضهم فيما بعد. وفضلاً عن ذلك ترك معاوية لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضاً حرية تامة في ممارسة طقوسهم الدينية: فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا في مسجد دمشق[9]. كما رمّم لهم كنيسة الرَّها (أُديسَّا)

(1) تاريخ الطبري، خلافة معاوية للعقيلي، ص: 75.
(2) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 75.
(3) الإدارة في العصر الأموي، ص: 108 - 109.
(4) أنساب الأشراف (4/ 65، 67)، خلافة معاوية، ص: 75.
(5) تاريخ اليعقوبي (2/ 223).
(6) تاريخ خليفة، ص: 228.
(7) تاريخ اليعقوبي (2/ 297) المحن، ص: 171 لأبي العرب.
(8) أنساب الأشراف (4 / 123).
(9) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 80.

والتي كانت قد تهدمت من جراء الزلازل[1]. كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري على مصر ما بين عامي (47هـ، 68هـ)[2].

كما استعان معاوية ﷺ بمهندسين وفنّيين من غير المسلمين في بناء قصر الخضراء بدمشق الذي اتخذه معاوية مقراً لإقامته في فترة إمارته على بلاد الشام، ثم في فترة خلافته بعد ذلك، ويروي البلاذري أنهم بنوه لمعاوية ﷺ ، من الحجارة بعد أن كان قبل مبنياً باللّبن والطين[3].

وكما كانت سياسة التسامح مع الرعايا غير المسلمين هي الطابع المميز لفترة خلافة معاوية ﷺ ، كذلك نرى سياسة التعاطف والاهتمام المتزايد وحسن المعاملة تجاه الموالي من المميزات الأخرى في عصر معاوية. فنجد معاوية ﷺ استعان بكثير من الموالي في إدارة بعض شؤون الدولة: فعين مولاه عبد الله بن درّاج على خراج الكوفة ومعونتها في ولاية المغيرة بن شعبة[4]. وكان وردان مولاه على خراج مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان[5]، وكان على حرسه رجل من الموالي يقال له: المختار، وقيل: رجل يقال له مالك ويكنى أبا المخارق مولى لحمير، وكان على حجابه سعد مولاه[6]. وكان يلي أمواله بالحجاز أيضاً. وهو الذي قال فيه معاوية: أغبط الناس عيشاً مولاي سعد، كان يتربع جدَّة، ويتقيَّظ الطائف، ويشتو بمكة[7]. واتخذ زياد بن أبي سفيان من مهران مولاه، حاجباً له وكاتبه على الخراج في العراق[8]. وكان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري، فتولى له إدارة شؤون المغرب[9] في سنة 55هـ.

وبالرغم من هذه الأمثلة نجد أن «عباس محمود العقاد» يشير إلى أن معاوية كان لا يلتفت إلى الموالي، وردّد ما سبقه إليه المستشرقون في طعنهم في تسامح معاوية ﷺ مع الموالي، رغم ما تزخر به المؤلفات العربية القديمة من أمثلة على هذا التسامح[10]، ومن ناحية أخرى،

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 291.
(2) فتوح مصر، ص: 132، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للقرضاوي، ص: 20-21.
(3) أنساب الأشراف (4 / 147).
(4) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 81.
(5) الإدارة في العصر الأموي، خماش، ص: 347.
(6) أنساب الأشراف (4/ 54، 63) خلافة معاوية، ص: 82.
(7) معجم البلدان (4/ 12) خلافة معاوية، ص: 82.
(8) تاريخ خليفة، ص: 212.
(9) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 82.
(10) خلافة معاوية، ص: 82.

فقد ترك معاوية ﷺ الإصلاحات الضرورية لعماله على الأقاليم ليقوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الإقليم الذي يرى شؤونه[1]، وقد أصبح التقسيم الإداري للدولة في عهده كالآتي: دمشق عاصمة للدولة، وقسم البلاد إلى ولايات يحكم كل ولاية منها وال من قبل الخليفة، وكان لكلٍّ سلطة غير محدودة في الولاية التي يحكمها، وفي بعض الأحيان أطلقت الدولة للوالي سلطة التصرف كما يشاء، حتى كان بعضهم يقتل وينفي، ويسجن، ويشرد، . . . وقد لاحظنا أن هذا الحكم المطلق لم يتكرر، بل كان دائماً محصوراً في ولاية العراق، وذلك لما كان يحدث فيها من اضطرابات وفتن أكثر من غيرها، وكان الخليفة يختار لهذه الولاية ولاة مشهورين بالحزم والشدة، فكان زياد بن أبيه من أشهر ولاة معاوية، أما بقية الولايات فكانت تحكم بطابع الدولة المألوف، فالوالي مقيد بأوامر الخليفة، لا يقضي إلا بعد رأيه، ولا يفصل إلا بعد مشاورته، وكان الوالي يرجع إلى الخليفة في كل ما يتصل بالمصالح العامة، فإذا كان الأمر خاصاً بولايته له أن يتصرف فيه بحسب ما يحقق المصلحة العامة، وإلا فهو مسؤول أمام الخليفة عن كل تصرفاته.

وكانت ولايات الدولة الكبرى في عهد معاوية[2]: دمشق العاصمة، والبصرة، والكوفة، والمدينة ومكة، ومصر وغيرها، وأما ولاة الأمصار في عهد معاوية فسوف نتحدث عنهم في حديثنا عن كل إقليم بإذن الله تعالى:

أولاً: البصرة:

ومن أشهر ولاتها في عهد معاوية:

1 - بسر بن أرطأة ﷺ:

تولى الولاية عام 41هـ، وجاءت روايات لم تصل إلى درجة الصحة تشير إلى تعرض بسر لأبناء زياد بن أبيه[3] ثم عزل وعين بدله عبد الله بن عامر.

2 - عبد الله بن عامر ﷺ: (41 - 44هـ):

ففي هذه السنة أي 41هـ ولى معاوية عبد الله بن عامر البصرة، وحرب سجستان[4]، وخراسان[5]. ولم يكن تعيين عبد الله بن عامر على البصرة لأسباب شخصية، لأنه لم ترد

(1) خلافة معاوية، ص: 83.
(2) الدولة الأموية محمد سيد الوكيل (1/ 97).
(3) تاريخ الطبري (6/ 82).
(4) سجستان: تقع حالياً جنوب غرب أفغانستان.
(5) تشمل حالياً: شمال شرق إيران، وشمال غرب أفغانستان.

رواية صحيحة تؤكد ذلك، ولكن اختيار معاوية ﷺ له كان نتيجة خبرته السابقة في ولاية البصرة وحرب سجستان وخراسان أيام عثمان، فما كان من معاوية إلا أن أسند الأمن إلى أهله، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب[1]، وبعد أن مضى ابن عامر ثلاث سنوات تمكن فيها من تثبيت الفتح في سجستان وخراسان واستفاد المسلمون من خبرته العسكرية، ثم دعت الحاجة إلى تغييره، فعزله معاوية وولى الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة في أول سنة خمس وأربعين، فأقام بالبصرة أربعة أشهر، ثم عزله وولاها زياداً[2].

3 - زياد بن أبيه (45هـ - 53هـ):

أ - نسبه: يعتبر نسب زياد المكنى بأبي المغيرة، من أكثر القضايا غموضاً في حياته، فقد كانت أمه أمة اسمها سمية[3]، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه، وبالتالي هم مختلفون في ذكر نسبه، فقد ذُكر اسمه في المصادر تارة زياد بن سمية[4]، وتارة زياد بن عبيد[5]، ومرة زياد الأمير[6]، وأخرى زياد بن أبي سفيان[7]، وفي أغلب الأحيان عرف بابن أبيه[8]، وذلك لما وقع فيه أبيه من الشك[9].

ب - صلح زياد مع معاوية: كان زياد بن أبيه والياً على خراسان لأمير المؤمنين علي ﷺ وكان مخلصاً له غاية الإخلاص، وحاول معاوية أن يكسب زياد ويضمه إلى صفه في عهد علي ﷺ إلا أنه فشل في ذلك، وبعد مقتل أمير المؤمنين علي ﷺ وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر في مساعيه الهادفة إلى استمالة زياد بأقل التكاليف، واستخدم معاوية لغة التهديد والترغيب مع زياد، ولكن زياداً اعتصم بفارس بقلعة عرفت باسمه، فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذي لم ينزل على حكم معاوية، ويدخل فيما دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً، وبإمكانيات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانياً، إلا أن هذه الأمور وحدها ليس كافية

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 234.
(2) تاريخ الطبري (6/ 133).
(3) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، للرواضية، ص: 31.
(4) تاريخ الطبري (6/ 131).
(5) العواصم من القواصم، ص: 31.
(6) الطبقات (7/ 99)، زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، ص: 31.
(7) طبقات خليفة بن خياط، ص: 191.
(8) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، ص: 32.
(9) المصدر نفسه، ص: 32، الوافي بالوفيات (15/ 32).

لمواجهة معاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذي دفع زياد في المرحلة التالية في علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر إيجابية.

وبعد صلح الحسن حاول معاوية الاتصال بزياد وسمح للمغيرة بن شعبة أن يتدخل لحل هذا المشكل، واستطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح في إقناع زياد ببيعة معاوية والدخول في طاعته، وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما قدمه لمعاوية من خدمات، فقد كان من الصعب على معاوية أن يصل إلى زياد أو يوفق في إخضاعه إلا بعد قتال عنيف، لا يدري أحد من سيكون الرابح في مثل ذلك الموقف الخطير[1]، وقد تمّ لمعاوية احتواء حركة اعتصام زياد بفارس، ولم يستعجل في الأمر، وابتعد عن استخدام القوة، وأعطى للزمن فرصته، واستعان بداهية من دهاة العرب في إقناع زياد، وهذا من حكمته[2] ﷺ.

جـ - **حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه**: قال الطبري في عام 44هـ: في هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل[3]، وقال الطبري: . . . زعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية فقال لزياد: إن لابن عامر عندي يداً، فإن أذنت لي أتيته، قال: على أن تحدثني ما يجري بينك وبينه، قال: نعم، فأذن له فأتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه! أو ابن سمية يقبح آثاري، ويعرض بعمالي؟! لقد هممت أن آتي بقسامه[4] من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية، قال: فلما رجع سأله زياد، فأبى أن يخبره، فلم يدعه حتى أخبره فأخبر ذلك زياد معاوية، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب، ففعل ذلك به، فأتى ابن عامر يزيداً، فشكا إليه ذلك، فقال له: هل ذكرت زياداً؟ قال: نعم، فركب معه يزيد حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: اجلس فكم عسى أن تقعد في البيت عن مجلسه، فلما أطال خرج معاوية، وفي يده قضيب يضرب به الأبواب، ويتمثل:

لنا سياق[5] ولكم سياق قد علمت ذلكم الرفاق[6]

ثم قعد فقال: يا ابن عامر، أنت القائل في زياد ما قلت؟! أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزها في الجاهلية، وإن الإسلام لم يزدني إلا عزاً، وإني لم أتكثر بزياد من قلة، ولم

(1) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، ص: 75 إلى 81.
(2) مرويات خلافة معاوية، ص: 173، تاريخ الطبري (6/ 94، 95).
(3) تاريخ الطبري (6/ 131).
(4) تاريخ الطبري (6/ 131) القسامة : هم القوم الذين يحلفون.
(5) السياق : المهر، القاموس المحيط (1156).
(6) تاريخ الطبري (6/ 132).

أتعزز به من ذلة، ولكن عرفت حقاً له فوضعته موضعه[1]، وقد اتهم معاوية ﷺ عندما استلحق زياد بن أبيه إلى أبيه بأنه خالف أحكام الإسلام لأن الرسول ﷺ قال: «**لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش[2]، وللعاهر الحجر**»[3].

وقد ردّ على هذا الاتهام الدكتور خالد الغيث في رسالته «مرويات خلافة معاوية» بقوله: . . أما اتهام معاوية ﷺ باستلحاق نسب زياد، فإني لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك، هذا فضلاً عن أن صحبة معاوية ﷺ، وعدالته ودينه وفقهه تمنعه من أن يرد قضاء رسول الله ﷺ، لاسيما وأن معاوية أحد رواة حديث: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[4]. ووجه التهمة إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذي ألحق نسبه بنسب أبي سفيان، واستدل برواية أخرجها مسلم في صحيحه من طريق أبي عثمان[5] قال: لما ادعى زياد، لقيت أبا بكرة فقلت له: ما هذا الذي صنعتم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمعت أذناي من رسول الله ﷺ وهو يقول: «**من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه، يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**». فقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ[6].

قال النووي رحمه الله معلقاً على هذا الخبر: . . . فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبي بكرة، وذلك أن زياداً هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبي سفيان، ويقال فيه: زياد بن أبيه، ويقال: زياد بن أمه، وهو أخو أبي بكرة لأمه. . . فلهذا قال أبو عثمان لأبي بكرة: ما هذا الذي صنعتم؟ وكان أبو بكرة ﷺ ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زياداً وحلف أن لا يكلمه أبداً، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبي بكرة حيث قال هذا الكلام، أو يكون مراده بقوله: ما هذا الذي صنعتم؟ أي هذا الذي جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته، فإن النبي ﷺ حرّم على فاعله الجنة[7].

وبذلك يكون زياداً هو المدَّعي، وفي حقيقة الأمر فإن مسألة استلحاق معاوية زياداً هي

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 132).

(2) الفراش: لفظة يعبر بها عن المرأة غالباً، وقد يعبر بها عن حالة الافتراش، والمراد لحوق حالة نسب الولد بمن له الاختصاص بالوطء كالزوج والسيد، فتح الباري (12/ 36).

(3) صحيح سنن أبي داود (2/ 430) للعاهر الحجر: أي للزاني الخيبة وحرمان الولد الذي يدعيه، وقد جرت عادة العرب أن تقول لمن خاب: له الحجر وبقية الحجر والتراب، فتح الباري (12/ 37).

(4) فتح الباري (12/ 39).

(5) أبو عثمان النهدي، معروف بكنيته، مخضرم من كبار الطبقة الثانية (ت 95 هـ).

(6) صحيح مسلم بشرح النووي (2/ 51، 52).

(7) شرح صحيح مسلم (2/ 52، 53).

مسألة اجتهادية، ويذهب الكثير من المؤرخين بأن هناك دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية - جارية الحارث ابن كلدة الثقفي - وكانت من البغايا ذوات الرايات - في الجاهلية ، فعلقت منه بزياد ، وذكروا بأن أبا سفيان اعترف بنفسه بذلك أمام علي بن طالب ﷺ وآخرين بعدما شب ونبغ في عهد عمر بن الخطاب[1]، وقال ابن تيمية: بأن أبا سفيان كان يقول: زياد من نطفته[2]، فلما كانت خلافة معاوية شهد لزياد بذلك النسب أبو مريم السلولي، وهو صحابي كان يعمل في الجاهلية خماراً بالطائف، وهو الذي جمع بين أبي سفيان وسمية، وكان ذلك أمراً مألوفاً آنذاك[3].

ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهد بذلك أحد رجال البصرة لزياد قبل استلحاق معاوية إياه[4]، فهي دعوة قديمة إذن ولم تكن كما يزعم الرواة نتيجة مشورة المغيرة بن شعبة على معاوية كجزء من صفقة متبادلة بين معاوية وزياد، أو غير ذلك من التفاصيل التي اخترعها الرواة[5].

وبعد عقود من السنين نجد الإمام مالك بن أنس - إمام أهل المدينة - يذكر زياداً في كتابه الموطأ بأنه زياد بن أبي سفيان، ولم يقل زياد بن أبيه، وذلك في عصر بني العباس[6]، والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غيروا عليه، ولا أنكروا ذلك منه، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلف الناس فيها، فمنهم من جوزها، ومنهم من منعها، فلم يكن لاعتراضهم عليها سبيل[7]، وفي نسبة الإمام مالك لزياد إلى أبي سفيان فقه بديع لم يفطن له أحد ، وهو أنها لما كانت مسألة خلاف ونقد الحكم فيها بأحد الوجهين لم يكن لها رجوع، فإن حكم القاضي في مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها ويرفع الخلاف فيها والله أعلم[8].

وأما تعارض هذا الاستلحاق مع نص الحديث الشريف، فمن اعتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زياداً لأن أنكحة الجاهلية كانت أنواعاً ، وكان منها أن الجماعة يجامعون البغي، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقه، فلمّا جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنّه أقر كل ولد كان يُنسب إلى أب من أي نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم

(1) مروج الذهب (3/ 14 - 15) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 195.
(2) الفتاوى (20/ 148).
(3) الكامل في التاريخ (2 / 470).
(4) تاريخ الطبري (6/ 131، 132).
(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 196.
(6) المصدر نفسه، ص: 196.
(7) العواصم من القواصم، ص: 254.
(8) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص: 141، نقلاً عن العواصم، ص: 242.

يفرّق بين شيء منها، فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرّق بين استلحاق في الجاهلية والإسلام[1].

وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخاً له ويقول: هو ابن أبي، ما دام ليس له منازع في ذلك النسب. فالحارث بن كلدة (الذي كانت سمية جارية له) لم ينازع زياداً ، ولا كان إليه منسوباً، وإنما كان ابن أمة بغي ولد على فراشه - أي في داره - فكل من ادعاه فهو له، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز، بل فعل الحق على مذهب مالك، فإن قيل: فلم أنكر عليه الصحابة؟ قلنا: لأنها مسألة اجتهاد[2]. والحوادث تثبت أن معاوية كان مقتنعاً بحق زياد في ذلك، ولابد أنه كان قد سمع من أبيه، ولهذا فإن معاوية كان مؤمناً بأن عمله لم يكن عملاً موضوعياً وواجباً ضرورياً من باب وضع الشيء في محله، ولا ريب أن هذا كان معروفاً عند الناس غير أن معاوية أراد أن يثبته[3].

د - خطبة زياد المعروفة بالبتراء بالبصرة: لما تولى زياد ولاية البصرة، عام 45هـ، خطب خطبة بتراء[4]، لم يحمد الله فيها وقيل: بل حمد الله فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، اللهم كما رزقتنا نعماً، فألهمنا شكراً على نعمتك علينا.

أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفَجر[5] الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيرها، ما يأتي سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأن لم تسمعوا بآي الله، ولم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمد[6] الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت[7] عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكروا أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به، من تركككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، في النهار المبصر، والعدد غير قليل: ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج[8] الليل وغارة النهار؟! قربتم القرابة، وباعدتم

(1) الكامل في التاريخ (2/ 471).
(2) العواصم من القواصم، ص: 253.
(3) إدارة العراق في صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب، ص: 61.
(4) تاريخ الطبري (6/ 134).
(5) الفَجر : الانبعاث في المعاصي والزنى، القاموس المحيط، ص: 584.
(6) السرمد : الدائم. القاموس المحيط، ص: 367.
(7) الطَّرفة : نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربة وغيرها.
(8) الدَّلج : السير من أول الليل، القاموس المحيط، ص: 342.

الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغطون على المختلس[1] كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عقاباً، ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب[2].

حُرِّم عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير جبرية وعنف. وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى[3]، والمقيم بالظاعن[4]، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد[5]، أو تستقيم لي قناتكم، إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي[6]، من بُيِّت[7] منكم، فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي، وإياي ودعوى الجاهلية[8]، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غُرِّق قوماً غرقته، ومن حرَّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته[9] حياً، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحن[10]، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره. فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس[11].

---

(1) الخلس : الأخذ في نهزة ومخاتلة، لسان العرب (6/ 65).
(2) كنوساً في مكانس الريب : استتروا في موضع الريبة، لسان العرب (6/ 198).
(3) بمعنى واحد وهو : الصاحب والقريب والجار والحليف والشريك.
(4) الظاعن : المسافر. لسان العرب (13/ 270، 271).
(5) مثل يضرب في الاستخبار عن الأمرين: الخير والشر، أيهما وقع.
(6) مرويات خلافة معاوية، ص: 240.
(7) بُيِّت : أُوقع به ليلاً . لسان العرب (2/ 16).
(8) دعوى الجاهلية : المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر.
(9) عند الجاحظ : دفناه فيه حياً. البيان والتبيين (2/ 230).
(10) الإحن : الأحقاد.
(11) تاريخ الطبري (6/ 136).

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة[1]، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء[2] الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا[3] بمناصحتكم. واعلموا أني مهما قصرت فإني لا أقصِّر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانه[4]، ولا مُجمِّراً[5] لكم بعثاً (مبقياً جيشاً في أرض العدو) أكثر من أربعة أشهر، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم كان شراً لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي». فقام عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، فقال: كذبت، ذاك نبي الله داود عليه السلام [6]. قال الأحنف: قد قلت فأحسنت أيها الأمير، والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نُثني حتى نُبتلى، فقال زياد: صدقت[7].

وهذه الخطبة تعتبر من الخطب المشهورة في التاريخ ومع الرغم من كثرتها وكثرة المصادر التي أوردتها إلا أنها لم تأت بإسناد صحيح يجعل القارىء يطمئن إلى صحة ما ورد فيها، لاسيما أنها تحتوي على مآخذ عديدة، وتناقضات واضحة تقلل من صحة نسبة جميع ما جاء فيها إلى زياد، وقد نبه إلى هذه المآخذ والتناقضات الدكتور[8] خالد الغيث حفظه الله، منها:

- تحدثت الخطبة عن انتشار الفجور في البصرة وكثرة بيوت الدعارة فيها، ويستفاد ذلك من قول زياد: . . من تركتكم هذه المواخير المنصوبة، وقوله: . . . حُرِّم عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً[9]. وهذا الكلام المنكر عن حال البصرة عند قدوم زياد، يرده حقيقة ما كانت عليه البصرة منذ تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، حيث بنيت

(1) ذادة: حماة ومدافعون.
(2) الفيء: الغنيمة.
(3) فيئنا: عطفنا وبرنا، لسان العرب (1/ 126).
(4) إبَّانه: حينه، القاموس المحيط (1515).
(5) تجمير الجيش: هو حبس الأمير للجيش في الثغر وعدم السماح له بالعودة.
(6) تاريخ الطبري (6/ 137).
(7) المصدر نفسه (6/ 137).
(8) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 244.
(9) تاريخ الطبري (6/ 135).

لتكون قاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لمواصلة الفتح ونشر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة، ومن أجل هذه الغاية استوطن البصرة أكثر من خمسين ومائة صحابي، حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم، فأنَّى لهذه المنكرات أن تنبت وتنتشر في مجتمع عماده الصحابة والتابعون دون أن ينكروه ويلزموه؟ كذلك فإن وجود الخوارج في البصرة وما عرف عنهم من الاستعجال والاندفاع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل آخر على انتفاء وجود هذه المنكرات في مجتمع البصرة وبالحجم الذي ورد في خطبة زياد[1].

- **ومن التناقضات الواردة في الخطبة:** ورد قول زياد: «وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه»[2] مع أنه ذكر في موضع آخر من الخطبة نقيض ذلك وهو قوله: «وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم»[3]. وورد في الخطبة قول زياد: «إياي ودلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه»[4]. لكنه عاد في موضع آخر من الخطبة لينقض ما ذكره آنفاً فقال: «لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل»[5]. وهذه التناقضات الواردة في الخطبة يستغرب صدورها من زياد مع ما عرف عنه من البلاغة والفصاحة، وهذا يقودنا إلى قضية أخرى وهي احتمال كون النص الذي بين أيدينا عن خطبة زياد عند مجيئه إلى البصرة عبارة عن أكثر من خطبة، تم دمجها في سياق واحد، ويؤيد ذلك ثناء عبد الله بن الأهتم والأحنف بن قيس على زياد بعد انتهاء الخطبة من أن الخطبة تستوجب النقد وليس الثناء، لما فيها من تقديم حكم الجاهلية على حكم الله[6].

وعن الشعبي، قال: ما سمعت متكلماً قد تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً[7]. وهذا الثناء من الشعبي على زياد يقوي الشك حول خطبة زياد البتراء التي سبق الحديث عنها في الرواية السابقة[8].

هـ - استعانة زياد بصحابة رسول الله ﷺ: استعان زياد بعددٍ من أصحاب النبي ﷺ،

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 244.
(2) تاريخ الطبري (6/ 135).
(3) المصدر نفسه (6/ 135).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه (6/ 136).
(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 246.
(7) المنتظم لابن الجوزي (5/ 212).
(8) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 247.

منهم: عمران بن الحصين الخزاعي[1]، ولاه قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفاري[2]، ولاه خراسان، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سمرة، فاستعفاه عمران فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثي[3] ثم أخاه عاصم بن فضالة[4]، ثم زرارة بن أوفى الحرشي[5]، وكانت أخته لبابة عند زياد[6].

و - من سياسة زياد في العراق: يعتبر زياد بن أبي سفيان عامل معاوية على البصرة والكوفة بعد عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة، هو الذي قام بمعظم الإصلاحات الضرورية في ذلك الجناح الشرقي من الدولة الأموية، وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة إدارية فائقة[7]. وقد استن زياد عدة قوانين وتنظيمات وقام بكثير من الإصلاحات في البصرة أولاً (45 - 50هـ)، ثم في الكوفة بعد أن جُمعت المدينتان تحت إمرته في ولاية واحدة وذلك منذ سنة 50هـ، وحتى سنة53هـ. فبنى دار الرزق في البصرة[8]، وهي شبيهة بمخزن المؤن في أيامنا هذه، فكان الأهالي يتمونون منها، وعيَّن أشخاصاً يشرفون عليها منهم: عبد الله بن الحارث بن نوفل، وروَّاد ابن أبي بكرة. كما عيَّن الجَعْد بن قيس النّمري مشرفاً على السوق ومراقباً على أسعار المواد الغذائية فيه[9]. وكان يعطي قروضاً للتجار إذا ما ارتفعت الأسعار كي يحثهم على المحافظة على سعر السلعة أو بزيادة بسيطة. وإذا ما تحقق ذلك وتوفرت الحاجات: ارتجع ماله[10].

وترك زياد الناس في البصرة أخماساً، أما الكوفة فقد قسمهم إلى أرباع[11]، بدل الأسباع. واختار عريفاً لكل قسم يقوم بمهمة توزيع الأعطيات على أفراد عشيرته، كما أنه كان مسؤولاً أمام زياد عما يحدث في ناحيته، فيقوم بإرسال التقارير بما حصل فيها أولاً بأول إلى زيادٍ، واستطاع أن يضبط الأمور في المدينتين برجال من أهلها.

(1) مات بالبصرة عام سنة 52هـ، أخرج له الستة، التقريب (429).
(2) مات بمرو عام 50هـ، أخرج له البخاري والأربعة، ابن حجر، التقريب (175).
(3) ابن حجر، التقريب (317).
(4) الإصابة (3/ 574).
(5) توفي وهو يصلي سنة 93هـ، التقريب لابن حجر (215).
(6) أنساب الأشراف (4/ 370).
(7) خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص: 86.
(8) أنساب الأشراف (4/ 314) خلافة معاوية، ص: 87.
(9) خلافة معاوية، ص: 87، نقلاً عن أنساب الأشراف (4/ 212، 217).
(10) أنساب الأشراف (4/ 237).
(11) تقسيم يتعلق بالقبائل.

وأصدر زياد أوامره بألّا يدخل أو يخرج أحد من الكوفة أو البصرة بعد صلاة العشاء، وأوقع القصاص بالسارق وقاطع الطريق، فعمَّ الأمن والطمأنينة بحيث إن المرأة كانت تنام وباب بيتها مفتوحاً، وأن الشيء ليسقط على الأرض فيظل ملقى دون أن يحركه أحد[1].

ونظم العطاء من الديوان، فحذف منه أسماء الذين توفوا ومن كان غائباً عن قطره، ومن كان عابثاً بالأمن، فكان: إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فملأوا بيوتهم من كل حُلْو وحامض، واستقبلوا رمضان بذلك، وإذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية[2]،ويشير البلاذري إلى أنه: كان لكل عيِّل جريبان ومائة درهم، ومعونة الفطر خمسين، ومعونة الأضحى خمسين[3]، واختار زياد حوالي خمسمائة رجل من أهل البصرة ليعملوا كحرس خاص له، وكذلك حماية الأماكن الهامة، وأعطى لكل واحد منهم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة درهم، وأسند قيادتهم إلى شيبان بن عبد الله السعدي[4].

وبنى زياد مساجد عديدة، منها: مسجد بني عدي، ومسجد بني مجاشع، ومسجد الأساورة. وكان لا يدع أحداً يبني بقرب مسجد الجماعة مسجداً، فكان مسجد بني عدي أقربها منه[5]. ويذكر ابن الفقيه: إن زياداً بنى سبعة مساجد، فلم يُنسب إليه شيء منها، وأن كل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد[6]. وزاد زياد في مسجد البصرة زيادة كثيرة، وبناه بالآجر والجص، وسقفه بالساج، وبنى منارته بالحجارة[7].

وكان يهتم بنظافة المدينة ويعتبر الأفراد مسؤولين عن نظافة بيوتهم ويعاقب من يهمل ذلك، فقد كان يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أضحت برفع ما بين يدي فنائه من الطين، فمن لم يفعل أمر ذلك الطين فألقي في مجلسه، وكان يأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات، ثم إنه اشترى عبيداً ووكلهم، فكانوا يلمونه[6]. فهذه الرواية تشير إلى وجود موظفين مهمتهم مراقبة النظافة من ناحية، كما تشير إلى أن زياداً تنبه إلى أن نظافة الطرق أمر يجب أن يتولاه أشخاص معينون، فاشترى عبيداً وكل إليهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات[9].

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلي، ص: 88.
(2) أنساب الأشراف (4/ 219).
(3) خلافة معاوية، ص: 88 نقلاً عن أنساب الأشراف (4/ 221).
(4) المصدر نفسه، ص: 89، أنساب الأشراف (4/ 221).
(5) مختصر كتاب البلدان، ص: 191.
(6) الإدارة في العصر الأموي، ص: 160.
(7) فتوح البلدان، ص: 346 - 347، خلافة معاوية، ص: 89.
(8) أنساب الأشراف (4/ 206) الإدارة في العصر الأموي، ص: 214.
(9) الإدارة في العصر الأموي، ص: 214.

واهتم زياد بتقدم الزراعة وتنظيم طرق الري: فبنى السدود[1]، وحفر القنوات[2]، كما أنه كان يمنح المزارع قطعة من الأرض الزراعية، مساحتها 60 جريباً، ثم يدعه عامين، فإن عمّرها أصبحت له، وإلا استردها منه، وأعطاها آخرين ينتظرونها[3]. ولكي يسهل الاتصال بين ضفتي نهر الفرات، فقد أصلح زياد قنطرة الكوفة وأعاد بناءها باللّبن والطوب المقوّى، بعد أن كانت من أخشاب القوارب المتهالكة. وأصبحت تعرف بعد ذلك بجسر الكوفة[4].

وأما عن كيفية تصرف زياد في موارد بيت مال الولاية فيشير البلاذري إلى: أن زياداً كان يجبي من كُوَر البصرة ستين ألف ألف، فيعطي المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ألف، ويعطي الذرية ستة عشرة ألف ألف درهم، وينفق من نفقات السلطان ألفي ألف، ويجعل في بيت المال للبوائق والنوائب ألفي ألف درهم، ويحمل إلى معاوية أربع آلاف (ألف) درهم، وكان يجبي من الكوفة أربعين ألف ألف، ويحمل إلى معاوية ثُلثي الأربعة الآلاف ألف، لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة. كما أن عبيد الله بن زياد – والذي خلف أباه على ولاية العراق – حمل إلى معاوية ستة آلاف ألف درهم، فقال معاوية: اللهم ارض عن ابن أخي[5].

4 – ولاية سمرة بن جندب ﷺ (54هـ):

عن جعفر بن سليمان الضبعي، قال: أقر معاوية سمرة بعد زياد ستة أشهر، ثم عزله فكذبوا على سمرة وزعموا أنه قال: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبداً[6]. هذا الخبر المنسوب إلى سمرة بأنه شتم معاوية خبر مكذوب على هذه الصحابي الكريم، وفي ذلك يقول ابن كثير: وهذا لا يصح عنه[7]، كما أن معرفة ميول مصدِّر الخبر جعفر بن سليمان الضبعي، والذي قال عنه ابن حجر: صدوق زاهد، لكنه يتشيع[8]، تبين أثر التشيع في تشويه التاريخ الإسلامي[9].

5 – ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي (54 – 55هـ):

قال الطبري وفي هذه السنة – 54هـ – كان عزل معاوية بن أبي سفيان لسمرة بن جندب

(1) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 89.
(2) فتوح البلدان ص/ 356، 362، 363، 369.
(3) خلافة معاوية، ص: 90.
(4) فتوح البلدان، ص: 285 – 286.
(5) أنساب الأشراف (4/ 218 – 219).
(6) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 261.
(7) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 262.
(8) تقريب التهذيب، ص: 140.
(9) مرويات خلافة معاوية، ص: 262.

عن البصرة، واستعمل عبد الله بن غيلان[1].

6 - ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة (55هـ - . . .):

قال الطبري: وفي هذه السنة ولى معاوية عبدَ الله بن زياد خراسان[2]، وفي عام 55هـ عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة، وولاها عبيد الله بن زياد[3]وأوصى معاوية عبيد الله بن زياد بهذه الوصية: إني قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمالي، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندي، لا تبيعن كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبونك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفسك فآسيهم[4].

وفي رواية قال له: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئاً، فإن في تقواه عوضاً، وقِ عرضك من أن تندسه، وإذا أعطيت عهداً فوفِّ به، ولا تبيعنَّ كثيراً بقليل، ولا تخرجن منك أمراً حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر بمن معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحداً في غير حقه، ولا تؤيسنّ أحداً من حق له. ثم ودعه[5].

ثانياً: الكوفة:

1 - المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (41 - 50هـ):

الأمير أبو عيسى، ويقال أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد. من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة. شهد بيعة الرضوان، كان رجلاً طوالاً مهيباً، ذهبت عينه يوم اليرموك وقيل: يوم القادسية[6]. وكان يقول: أنا آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ، لما دفن رسول الله ﷺ في القبر، فألقيت خاتمي، فقلت: يا أبا الحسن، خاتمي قال: انزل فخذه، قال: فمسحت يدي على الكفن ثم خرجت[7].

وله مواقف في الدهاء والمكر والكيد منها: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، ، أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه، فقال دهقانهم[8]: إن فعلتم ما آمركم لم يردَّه علينا. قالوا: مُرْنا. قال: تجمعون مائة ألف حتى

(1) تاريخ الطبري (6/ 212).
(2) المصدر نفسه (6/ 212).
(3) المصدر نفسه (6/ 217).
(4) المصدر نفسه (6/ 213).
(5) المصدر نفسه (6/ 214).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 21).
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 26).
(8) الدِّهقان: القوي على التصرف، رئيس الإقليم.

أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إليَّ. قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك، فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب أصلحك الله، إنما كانت مائتي ألف، قال: ما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للعِلْج: ما تقول؟ قال: لا والله لأصَدُقنَّك ما دفع إليَّ قليلاً ولا كثيراً، فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب عليَّ، فأحببت أن أخزيه[1].

وعن الشعبي: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يخرج من باب إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلها[2]، وقال الشعبي: . . والدهاة أربعة: معاوية وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد[3]. وكان المغيرة بن شعبة من أنصار التعدد فكان يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان[4]. فهو يدعو للزواج من ثلاث أو أربع.

وقد استعمل معاوية المغيرة على الكوفة عام 41هـ[5]، وقام بجهود عظيمة في قتال الخوارج، ووجد وقتاً كافياً قام فيه بتوسيع مسجد الكوفة، فجعله يتسع لأربعين ألفاً من المصلين[6]. وبقي في الولاية إلى عام 49هـ، وقيل: 50هـ، وهو الراجح، وعندما مات ضم معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة[7].

2 - ولاية زياد بن أبيه على الكوفة (50 - 53هـ):

كان زياد على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين، فمات المغيرة بن شعبة بالكوفة وهو أميرها، فكتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة والبصرة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، فاستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة، وستة أشهر بالبصرة[8]. وقد تحدثنا عن سياسة زياد فيما سبق بالعراق، وقد وصفه الذهبي فقال فيه: . . كان من نُبلاء الرجال، رأياً، وعقلاً وحزماً ودهاءً وفطنة، وكان يضرب به المثل في النُّبل والسؤدد، وكان كاتبا بليغاً كتب للمغيرة، ولابن عباس وناب عنه بالبصرة[9].

وقال الشعبي: ما رأيت أحداً أخطب من زياد[10]. وقال فيه ابن حزم: لقد امتنع زياد وهو فِقَعَةُ القاع[11]، لا نسب له ولا سابقة، فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة، ثم استرضاه

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 26).
(2) المصدر نفسه (3/ 30).
(3) البداية والنهاية (11/ 22).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 31).
(5) تاريخ الطبري (6/ 82).
(6) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 85.
(7) تاريخ الطبري (6/ 150).
(8) تاريخ الطبري (6 / 150).
(9) تاريخ الطبري (6 / 150).
(10) سير أعلام النبلاء (3 / 495).
(11) المصدر نفسه (3 / 496).

وولاّه[1] وقال أبو الشعثاء: كان زياد أفتك من الحجَّاج لمن يخالف هواه،[2] وعندما استقر أمره بالعراق وتمكن منها، كتب زياد إلى معاوية: قد ضبطت لك العراق بشمالي، ويميني فارغة، فأشغلها بالحجاز... فلما بلغ ذلك أهل الحجاز أتى نفر منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله عليه فيكفيكموه، فاستقبل القبلة، واستقبلوها فدعوا ودعا، فخرجت طاعونة[3] على أصبعيه، فأرسل إلى شريح[4] - وكان قاضيه - فقال: حدث بي ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشر علي، فقال له شريح: إني أخشى أن يكون الجراح على يدك، والألم على قلبك، وأن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله ﷻ أجذم[5] وقد قطعت يدك كراهية للقائه، أو أن يكون في الأجل تأخير، وقد قطعت يدك فتعيش أجذم وتعير ولدك، فتتركها، وخرج شريح فسألوه، فأخبرهم بما أشار به، فلاموه وقالوا: هل أشرت عليه بقطعها، فقال: قال رسول الله ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»[6]. وقد مات زياد سنة ثلاث وخمسين[7].

3 - ولاية عبد الله بن خالد بن أسيد (53 - 55هـ):

عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص، ولي فارس لزياد[8]، ثم استخلفه زياد على الكوفة عند مماته، وهو الذي صلى على زياد.

4 - ولاية الضحاك بن قيس الفهري (55 - 58هـ):

وفي سنة 55هـ عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة، وولاها الضحاك بن قيس الفهري[9].

5 - ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي (58هـ):

وفي سنة 58هـ ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، وعزل عنها الضحاك بن قيس[10].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 496).
(2) المصدر نفسه (3/ 496).
(3) الطاعون: الوباء.
(4) شريح الكندي: مختلف في صحبته، ولي القضاء من عهد عمر حتى عصر عبد الملك، توفي سنة 78هـ.
(5) الأجذم: المقطوع اليد، أو الذاهب الأنامل.
(6) صحيح الأدب المفرد للألباني (113).
(7) تاريخ الطبري (6/ 206).
(8) نسب قريش: للزبيري، ص: 187.
(9) تاريخ الطبري (6/ 218).
(10) المصدر نفسه (6/ 226).

هذا وقد قام معاوية ﷺ بعزل عبد الرحمن ابن أم الحكم عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة، ودليل ذلك ما أخرجه أحمد بن حنبل، بإسناد صحيح، قال: حدثني هارون ابن معروف قال: حدثنا سفيان، عن مطرف، قال: أخبرني ابن سعيد قال: . . ثم إن ابن أم الحكم عزل حين قتل ابن صلوبا[1].

6 - ولاية النعمان بن بشير ﷺ (59 - 60هـ):

وفي سنة 59هـ عزل عبد الرحمن ابن أم الحكم عن الكوفة، واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصاري[2].

فهؤلاء هم ولاة الكوفة في عهد معاوية ﷺ.

ثالثاً: المدينة النبوية:

تعتبر المدينة من أهم الولايات للنفوذ الروحي والديني على الدولة الأموية بسبب وجود الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار، ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة، إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعهم الناس ويسيرون برأيهم[3]، وقد دخلت المدينة في سلطان معاوية ﷺ بعد عام الجماعة سنة 41هـ، وقد حرص معاوية على زيارتها منذ بيعته، فقدم المدينة وتلقته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعزّ نصرك وأعلى أمرك، فما رَدَّ عليهم جواباً حتى دخل المدينة، فقصد المسجد، وعلا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه فقال: . . . ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك، وحاولتها على مثل سنيّان عثمان، فأبت علي، وأين مثل هؤلاء ومن يقدر على أعمالهم، هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. . غير أني سلكت بها طريقاً لي منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه قد جعلته دُبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فارضوا مني ببعضه، وإياكم والفتنة، فلا تهموا بها، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة[4].

---

(1) التاريخ الكبير للبخاري (6/ 533)، العلل ومعرفة الرجال (2/ 24، 25)، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 227.

(2) تاريخ الطبري (6/ 223).

(3) التاريخ الإسلامي، العهد الأموي، محمود شاكر، ص: 90.

(4) البداية والنهاية (11/ 432).

ونلاحظ في هذه الخطبة حرص معاوية ﷺ على أن يكسب ودهم ويحافظ على عهده لهم، ما حافظوا على بيعتهم له[1].

وقد هدأت المدينة بعد بيعة معاوية وأخلدت إلى الـكينة، وانصرف أهلها إلى أعمالهم، وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ، وأغدق معاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتهم وكان كرم هؤلاء يسع الكثير من أجل المدينة[2] وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفياً بالسياسة التي رسمها في خطبته عند زيارة المدينة، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من الترهيب، وكان إكرامه لرجالات المدينة إكراماً يفوق كل وصف، وما قصده أحد في طلب إلا أعطاه. لقد كان يخص وجهاء القوم، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية، كلما كثرت عطايا معاوية كثر إنفاقهم على أهل المدينة[3]، فقد روي أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، مما كان عليها من الدَّين الذي كانت تعطيه الناس[4]، وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف، ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فقالت: ألا ذكّرتني[5].

وأما ولاة المدينة فهم:

1 - مروان بن الحكم (42 - 49هـ):

في عام 42هـ ولى معاوية مروان بن الحكم المدينة، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث ابن نوفل[6].

2 - ولاية سعيد بن العاص ﷺ (49 - 54هـ):

في سنة 49هـ عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة في شهر ربيع الأول، وأمَّر فيها سعيد بن العاص على المدينة في شهر ربيع الآخر، وقيل: في شهر ربيع الأول[7].

3 - ولاية مروان بن الحكم الثانية (54 - 57هـ):

في عام 54هـ عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم[8].

---

(1) المدينة في العصر الأموي محمد شرّاب، ص: 70.
(2) المصدر نفسه، ص: 71.
(3) المدينة في العصر الأموي، ص: 73.
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(5) تذكرة الحفاظ ترجمة 13، سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(6) تاريخ الطبري (6/ 87).
(7) المصدر نفسه (6/ 148).
(8) المصدر نفسه (6/ 210).

4 - ولاية الوليد بن عتبة بن أبي سفيان:

استعمل معاوية على المدينة حين صرف عنها مروان: الوليد بن عتبة بن أبي سفيان[1] وكان ذلك عام 57هـ[2].

وفاة أبي هريرة ﷺ بالمدينة 58هـ، وقيل 59هـ:

توفي أبو هريرة ﷺ في عهد معاوية، وقد تعرّض للهجوم الشرس من قبل أعداء السنة النبوية بسبب خدمته لها، فرأيت من المناسب أن أترجم لأبي هريرة وأتعرض للشبهات المثارة حوله وبيان بطلانها وزيفها.

أ - **التعريف به**: هو عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي اليماني، كان اسمه في الجاهلية عبد شمس، فسماه رسول الله ﷺ: عبد الرحمن، واشتهر أبو هريرة بكنيته، حتى غلبت على اسمه فكاد ينسى، وسئل أبو هريرة: لم كنيت بذلك؟ قال: كنيت أبا هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي، فقيل لي: أبو هريرة، وكان يرعى غنم أهله في صغره، ويداعب هرته وكان يقول: لا تكنوني أبا هريرة، فإن النبي الله ﷺ كناني أبا هر، والذكر خير من الأنثى[3].

ب - **إسلامه**: هاجر أبو هريرة من اليمن إلى المدينة ليالي فتح خيبر، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وكان قد أسلم على يد الطفيل بن عمرو في اليمن، ووصل المدينة وصلى الصبح خلف سباع بن عرفطة الذي كان قد استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة أثناء غزوة خيبر[4]. وقد لازم أبو هريرة النبي ﷺ إلى آخر حياته، وقصر نفسه على خدمته، وتلقى العلم الشريف منه، فكان يدور معه ويدخل بيته، ويصاحبه في حجه وغزوه، ويرافقه في حله وترحاله، في ليله ونهاره،حتى حمل عنه العلم الغزير الطيب، فكانت صحبته أربع سنوات، وقد اتخذ الصُّفة مقاماً له، وخدم الرسول ﷺ على ملء بطنه، وجعله رسول الله ﷺ عريف أهل الصفة، فقد كان أعرف الناس بهم وبمراتبهم[5].

جـ - **دعوته لأمه للإسلام**: قال أبو هريرة ﷺ: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم

(1) تاريخ الطبري (6/ 225).
(2) المصدر نفسه.
(3) سير أعلام النبلاء (2/ 424).
(4) المصدر نفسه (2/ 425).
(5) حلية الأولياء (1/ 376) السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، ص: 412.

فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهم اهد أم أبي هريرة**»، فخرجت مستبشراً بدعوة رسول الله ﷺ، فلما جئت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً. قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهم حبّب عُبيدك هذا** - يعني أبا هريرة - **وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**». فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[1].

د - **عبادة أبي هريرة ﷺ وأسرته**: كان أبو هريرة ﷺ ورعاً، ملتزماً سنة الرسول ﷺ، يحذر الناس في الانغماس في ملذات الدنيا، وشهواتها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يفرق في ذلك بين غني ولا فقير، أو بين أمير وحقير، وأخباره في هذا الصدد كثيرة، وكان يخشى الله كثيراً في السر والعلن، ويذكر الناس به، ويحثهم على طاعته[2]، وكان عابداً، يصوم النهار ويقوم الليل، ويتناوب قيامه هو وزوجته، وابنته[3]، وكان يهتم بعمران بيته بعبادة الله تعالى، فعن أبي عثمان النهدي قال: تضيَّفت أبا هريرة سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً: يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا[4] فبيت أبي هريرة أشراقه مضيئة تبين لنا بيوت المسلمين في ذلك العهد، فهو بيت عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكاناً في هذا البيت؟ إنها تربية عالية على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبير والعالم الرباني أبي هريرة ﷺ، واستجابة كريمة من امرأة طاهرة زكية وخادم صالح مطيع. إن أبناء الدنيا حينما يكلفون خدمهم، بعمل كبير، فإنما يكلفونهم بأعمال الدنيا، ويرون أنه لا مصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون في أعمال الآخرة، لأنهم يكسبون بذلك أجراً على حسن توجيههم[5].

هـ - **فقره وعفافه**: كان أبو هريرة أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد

(1) مسلم (رقم 2491)، بر الوالدين، أم حفص الشويحي، ص: 35.
(2) سير أعلام النبلاء (2/ 438).
(3) البداية والنهاية (11/ 378).
(4) سير أعلام النبلاء (2/ 609).
(5) التاريخ الإسلامي (19/ 215) للحميدي.

حتى إنه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع، يطوي نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم صلبه[1]، قال سعيد بن المسيب رحمه الله: رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق، ثم يأتي أهله فيقول: هل عندكم من شيء؟ فإن قالوا: لا، قال: فإني صائم[2]، وكان قنوعاً راضياً بنعم الله، فإذا أصبح لديه خمس عشرة تمرة أفطر على خمس، وتسحر على خمس، وأبقى خمس لفطره[3]، وكان كثير الشكر لله، كثير الحمد والتسبيح والتكبيرعلى ما أتاه الله من فضل وخير[4].

و - **حلمه وعفوه**: كانت عند أبي هريرة زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع يوماً السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به، ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك أحوج ما أكون إليه، اذهبي فأنت حرة لله عز وجل[5]، وهكذا يوازن أبو هريرة ﷺ بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل اتقاء سخط الله ﷻ وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلاً من إساءتها بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة.. خشية الله تعالى، والعفو عن المسيء، والإحسان إليه، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة ﷺ للحياة الآخرة، واستحضارهم رقابة الله تعالى، وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه[6].

ز - **ولايته على البحرين في عهد عمر** ﷺ: كان رسول الله ﷺ قد أرسل أبا هريرة مع العلاء الحضرمي إلى البحرين، لينشر الإسلام، ويفقه المسلمين، ويعلمهم أمور دينهم، فحدث عن رسول الله ﷺ وأفتى الناس، وفي عهد عمر ﷺ استعمله على البحرين، فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله وعدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، قال: فمن أين هي لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة رقيق لي، وأعطية تتابعت عليّ. فنظروا فوجدوا كما قال[7]، وقد قاسمه عمر ﷺ مع جملة من قاسمهم من العمال، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين[8]، وبعد ذلك دعاه عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل وقد طلب العمل من كان خير منك، يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة ابن أميمة وأخشى

(1) السنة قبل التدوين، ص: 413.
(2) حلية الأولياء (3/ 3381).
(3) البداية والنهاية (11/ 385).
(4) تاريخ الإسلام (2/ 335)، سير أعلام النبلاء (2/ 439، 440).
(5) البداية والنهاية (11/ 385).
(6) التاريخ الإسلامي (17/ 23) للحميدي.
(7) البداية والنهاية (11/ 387).
(8) طبقات بن سعد (4/ 60)، السنة قبل التدوين، ص: 416.

عملكم ثلاثاً واثنتين، فقال: فهل قلت خمساً؟ قال: لا. أخاف أن أقول بغير علم وأقضي بغير حلم، وأن يضرب ظهري، وينزع مالي، ويشتم عرضي[1].

ح - **اعتزاله الفتن**: كان أبو هريرة يوم حصار عثمان ﷺ عنده في الدار مع بعض الصحابة وأبنائهم، الذين جاءوا ليدفعوا الغوغاء عنه، وقد حفظ ولد عثمان له يده واحترموه حتى أنه لما مات أبو هريرة كان يحملون سريره حتى بلغوا البقيع[2]، وقد اعتزل أبو هريرة ﷺ الفتن بعد استشهاد عثمان ﷺ [3].

ط - **مرحه ومزاحه**: كان أبو هريرة ﷺ حسن المعشر، طيب النفس، صافي السريرة، كان يحب الفكاهة والمزاح ومع هذا كان يعطي كل شيء حقه، فقد نظر إلى الدنيا بعين الراحل عنها، فلم تدفعه الإمارة إلى الكبرياء، بل أظهرت تواضعه، وحسن خلقه، فربما استخلفه مروان على المدينة، فيركب حماراً قد شدَّ عليه بَرْذعة وفي رأسه خلبة من ليف، يسير فيلقى الرجل، فيقول: الطريق، قد جاء الأمير[4]. ويمر أبو هريرة في السوق، يحمل الحطب على ظهره - وهو يومئذ أمير لمروان - فيقول لثعلبة بن أبي مالك القرظي: أوسع الطريق للأمير يا ابن مالك، فيقول: يرحمك الله يكفي هذا!! فيقول أبو هريرة: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه[5]. وكان يحب إدخال السرور إلى نفوس الأطفال، فقد يراهم يلعبون بالليل لعبة الإعراب، فلا يشعرون به حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجليه كأنه مجنون فيفزع الصبيان منه ويفرون[6] هاهنا وهاهنا يتضاحكون[7]. قال أبو رافع: وربما دعاني أبو هريرة إلى عشائه في الليل، فيقول: دع العُراق للأمير - يعني قطع اللحم - فنظرت فإذا ثريد بزيت[8].

ي - **حياته العلمية**: صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات، وسمع منه كثيراً، وشاهد دقائق السنة، ووعى تطبيق الشريعة، وكان همه طلب العلم وأمله التفقه في الدين[9]، وكان حفظ أبي هريرة الخارق من معجزات النبوة[10]، فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ

(1) سير أعلام النبلاء (2/ 441)، السنة قبل التدوين، ص: 416.
(2) الكامل في التاريخ (2/ 523).
(3) السنة قبل التدوين، ص: 417.
(4) طبقات ابن سعد، نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص: 418.
(5) البداية والنهاية (11/ 386).
(6) البداية والنهاية (11/ 388).
(7) البداية والنهاية (11/ 388) في الحاشية.
(8) البداية والنهاية (11/ 388).
(9) السنة قبل التدوين، ص: 420.
(10) سير أعلام النبلاء (2/ 594).

قال: «**ألا تسألني من الغنائم التي يسألني أصحابك؟**» قلت: أسألك أن تعلمني مما علمك الله، فنزع نمرة كانت على ظهري، فبسطها بيني وبينه، حتى كأني أنظر إلى النمل يدب عليها، فحدَّثني حتى إذا استوعبت حديثه، قال: «**اجمعها فصُرْها إليك**». فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدّثني[1].

وكان يقول ﷺ: إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثله؟! وإن إخواني من المهاجرين يشغلهم الصَّفق في الأسواق، وكان إخواني من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصفة، ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني فأحضر حين يغيبون، وأعي حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه يوماً: «**إنَّه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي جميع مقالتي، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول**». فبسطت نمرة عليَّ، حتى إذا قضى مقالته، جمعتها إلى صدري. فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ من تلك شيئاً[2]، وفي رواية: إنه حدثنا يوماً فقال: «**من يبسط ثوبه حتى أقضي مقالتي، ثم قبضه إليه، لم ينس شيئاً سمع مني أبداً**». ففعلت، فوالذي بعثه بالحق، ما نسيت شيئاً سمعته منه[3].

وعن أبي هريرة، قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**لقد ظننت يا أبا هريرة لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث: إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من نفسه**»[4].

وكان أبو هريرة حافظاً متقناً، ضابطاً لما يروي، دقيقاً في أخباره، فقد اجتمعت فيه صفتان عظيمتان تتم إحداهما الأخرى:

الأولى: سعة علمه وكثرة مروياته.

والثانية: قوة ذاكرته وحسن ضبطه وهذا غاية ما يتمناه أولو العلم[5]، ويذكر لنا أبو الزعيزعة كاتب مروان ما يثبت إتقانه وحفظه فيقول: دعا مروان أبا هريرة فجعل يسأله، وأجلسني خلف السرير، وجعلت أكتب عنه، حتى إذا كان رأس الحول، دعاه، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر[6]. ولم

(1) سير أعلام النبلاء (2/ 594) رجاله ثقات.
(2) مسلم رقم 2492.
(3) سير أعلام النبلاء (2/ 595) مسلم رقم 2294.
(4) سير أعلام النبلاء (2/ 596) إسناده صحيح.
(5) السنة قبل التدوين، ص: 427.
(6) سير أعلام النبلاء (2/ 598).

يكن أبو هريرة راوية للحديث فقط، بل كان من رؤوس العلم في زمانه، في القرآن والسنة والاجتهاد، فإن صحبته وملازمته لرسول الله ﷺ أتاحت له أن يتفقه في الدين، ويشاهد السنة العملية، عظيمها ودقيقها، فتكونت عنده حصيلة كثيرة من الحديث الشريف، كل ذلك هيأ أبو هريرة لأن يفتي المسلمين في دينهم نيفاً وعشرين سنة، والصحابة كثيرون آنذاك[1].

ك - أصح الطرق عن أبي هريرة في الحديث عن رسول الله ﷺ:

حكي عن ابن المديني أن من أصح الأسانيد إطلاقاً: حماد بن يزيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة[2]، وأصح ما روي من الحديث عن أبي هريرة ما جاء عن:

- الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.
- أبي الزناد، عن الأعرج - عبد الرحمن بن هرمز -، عن أبي هريرة.
- مالك، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.
- سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.
- معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.
- معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة[3].

● **الرد على الشبه التي أثيرت حول أبي هريرة ﷺ:**

كتب بعض أهل الأهواء قديماً في الطعن في أبي هريرة، وتابعهم في هذا العصر بعض المستشرقين أمثال (جولد تسهير) و(شبرنجر) في الطعن في أبي هريرة ﷺ بالظلم والبهتان، وكتب عبد الحسين شرف الدين العاملي الشيعي كتاباً تحت عنوان (أبو هريرة) وافترى فيه على أبي هريرة افتراءات يندى لها جبين العلم وتحز ضمير العلماء، وتجرح الحق، ولا تلتقي معه، حتى انتهى إلى تكفير أبي هريرة[4]، وقد استقى من هذا الكتاب أبو رية صاحب كتاب «أضواء على السنة المحمدية»، فكان أشد على أبي هريرة من أستاذه وأكثر ضلالاً وزيفاً، وأهم هذه الشبهات التي ألصقت بأبي هريرة ﷺ:

أ - عمر وأبو هريرة ﷺ:

اتهم عبد الحسين شرف الدين وأبو رية[5] أبا هريرة بأنه سرق عشرة آلاف دينار حينما

(1) السنة قبل التدوين، ص: 428.
(2) السنة قبل التدوين، ص: 434.
(3) السنة قبل التدوين، ص: 435.
(4) السنة قبل التدوين، ص: 437.
(5) أبو هريرة لعبد الحسين، ص: 14 - 15، أضواء السنة المحمدية، ص: 192.

ولي البحرين لعمر، فعزله وضربه بالدرة حتى أدماه، لقد ذكرت جميع الروايات المعتمدة أن عمر ﷺ قاسمه ماله، كما قاسم غيره من الولاة[1] ، وليس فيها أنه ضربه حتى أدماه، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين، فلم يحقد على عمر ﷺ ، مع أنه يعلم أن ما قاسمه إياه إنما هو عطاياه وأسهمه وغلة رقيقة، ولو أن عمر شك في أمانة أبي هريرة بعض الشك لحاكمه وعاقبه العقوبة الشرعية، ولكنه عرف فيه الأمانة والإخلاص فعاد إليه بعد حين يطلبه للولاية فأبى أبو هريرة قبولها كما أسلفنا. هذا وجه الحق الذي أخفاه عبد الحسين وأبو رية، فعبد الحسين نقل رواية واحدة عن العقد الفريد لابن عبد ربه[2]، حيث وجد فيها ما يوافق هواه، واكتفى أبو رية بالنقل عن عبد الحسين من غير أن يشير إلى المصدر ومن غير بحث أو مقارنة وتمحيص[3]. وهذا يدل على حرصهم على التزوير والإخلال بالأمانة العلمية.

ب - هل تشيع أبو هريرة للأمويين؟ ووضع أحاديث في ذم علي وأبنائه؟

وقد اتهمه عبد الحسين بأنه دعاية الأمويين في سياستهم، فتارة يفتئت الأحاديث في فضائلهم.. وتارة يلفق أحاديث في فضائل الخليفتين نزولاً على رغائب معاوية وفئته الباغية[4]وجمع أبو رية في هذا الموضوع كل شتائم كتب الشيعة في أبي هريرة، ونبش الأكاذيب والافتراءات على صحابة رسول الله، واعتمد الكتب التي لم يعرف مؤلفوها بالصدق ولا بالتمحيص في الرواية أو التي عرف مؤلفوها بالبغض القاتل لأبي هريرة.

والعقيدة التي ندين بها أن أبا هريرة ﷺ كان محباً لآل بيت رسول الله ﷺ، وروى في فضائل الحسن والحسين أكثر من حديث[5] ولم يناصب أهل البيت العداء قط، ومشهور عنه: أنه تمسك بسنة رسول الله ﷺ، فكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ، ومن العجيب أن يدعي إنسان نهل من العلم بعضه أن أبا هريرة يكره علياً وأهله ﷺ [6].

وقد كتب الأستاذ عبد المنعم صالح العزي كتابه القيم في الدفاع عن أبي هريرة، وبيّن حبه لعلي وفاطمة ﷺ وبيّن بأنه يروي منقبة علي يوم خيبر، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه**» - ثم روى

(1) تاريخ الإسلام (2/ 338)، حلية الأولياء (1/ 380) البداية والنهاية (11/ 387).
(2) السنة قبل التدوين، ص: 438.
(3) المصدر نفسه، ص: 439.
(4) أبو هريرة لعبد الحسين، ص: 35.
(5) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: 353، 354.
(6) البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، ص: 127.

إعطاءه إياها[1]، أفهذه رواية كاره لأمير المؤمنين علي ﷺ [2].

وفي مناقب فاطمة ﷺ يروي أبو هريرة قول النبي ﷺ: «**إن فاطمة سيدة نساء أمتي**»[3]، وروى أبو هريرة أحاديث في حب الحسن بن علي، وله معه وقائع وأخبار تدل على حب عظيم كان يكنه للحسن[4]. ويروي لنا أبو هريرة صورة لحبه للحسن ﷺ مع النبي ﷺ فيقول: لا أزال أحب هذا الرجل بعد ما رأيت رسول الله ﷺ، وهو يدخل أصابعه في لحية النبي ﷺ، والنبي ﷺ يدخل لسانه في فمه، ثم قال: «**اللّهم إني أحبه فأحبه**»[5]. فلا غرابة بعد هذا الحب أن رأينا أبا هريرة يبكي يوم يموت الحسن ويدعو الناس إلى البكاء[6]، يقول من حضر ذاك اليوم: رأيت أبا هريرة قائماً على المسجد يوم مات الحسن يبكي وينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس: مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا[7]، ولم يكن حب الحسين بن علي أقل ظهوراً عند أبي هريرة من حب الحسن، إذ ينقل لنا حادثة أخرى للنبي ﷺ فيقول: ما رأيت الحسين بن علي إلا فاضت عيني دموعاً، وذاك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فوجدني في المسجد، فأخذ بيدي واتكأ علي، فانطلقت معه حتى جاء سوق بني قينقاع، قال: وما كلمني فطاف ونظر، ثم رجع ورجعت معه فجلس في المسجد واحتبى، وقال لي: «**ادع لي لكاع**»، فأتى حسين يشتد حتى وقع في حجره ثم أدخل يده في لحية رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يفتح فم الحسين فيدخل فاه فيه ويقول: «**اللّهم إني أحبه فأحبه**»[8]. والقصة هذه رواها البخاري وفيها الحسن لا الحسين، لكن الحاكم أشار إلى أن كلا الروايتين محفوظة واردة، وذلك محتمل، لأن فيها ذكر الرجوع إلى المسجد[9]، ولقد أثبت عبد المنعم العزي في كتابه (أقباس من مناقب أبي هريرة) بالدلائل القطعية الكافية اعتداد أبناء علي ﷺ بحديث أبي هريرة، وروايتهم عنه، ورواية كبار فرسان علي وأمراء جنده، الذين قاتلوا معه في معارك الجمل وصفين والنهروان عن أبي هريرة، ورواية جمهرة من التابعين عنه ممن لاقوا علياً ﷺ ورووا عنه، ورواية عدد كبير آخر من جماهير الشيعة والكوفيين ومحبي ذرية علي من طبقة أتباع التابعين والطبقة التي

(1) صحيح مسلم.
(2) الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، ص: 133.
(3) التاريخ الكبير للبخاري (1/ 232) بسند موصول.
(4) الأدلة الباهرة، ص: 134.
(5) المستدرك (3/ 169) بسند صحيح.
(6) الأدلة الباهرة، ص: 135.
(7) التهذيب (2/ 301).
(8) المستدرك (3/ 178).
(9) الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، ص: 135.

تليهم لحديث أبي هريرة، واستعمالهم له، واستدلالهم به، وتدوينه في كتبهم[1].

إن الحقيقة العلمية التاريخية تقول: لا يوجد أي دليل يعتمد عليه في تشيع أبي هريرة للأمويين، أو محاربته وعداوته لعلي وأبنائه، وإنما ظلم وافتراء واختلاق على الحقيقة، وإنما ما نسب إليه من أحاديث في مدح الأمويين، إنما هي ضعيفة وموضوعة عليه، وأهل الخبرة في هذا الشأن بينوا الكذابين والواضعين لها[2].

وأما دعوى كون الدولة الأموية وضعت أحاديث لتعمم بها رأياً من آرائها، فهذه دعوى لا وجود لها إلا في خيال الكذّابين، فما روى لنا التاريخ أن الحكومة الأموية وضعت أحاديث، ونحن نسأل من زعم ذلك: أين هي تلك الأحاديث التي وضعتها الحكومة؟ إن علماءنا اعتادوا ألا ينقلوا حديثاً إلا بسنده، وها هي أسانيد الأحاديث الصحيحة محفوظة في كتب السنة، ولا نجد حديثاً واحداً من آلافها الكثيرة في سنده عبد الملك أو يزيد أو الوليد أو أحد عمالهم كالحجاج وخالد القسري وأمثالهم، فأين ضاع ذلك في زوايا التاريخ لو كان له وجود؟ وإذا كانت الحكومة الأموية لم تضع بل دعت إلى الوضع، فما الدليل على ذلك[3]؟

وأما ما زعمه عبد الحسين وأبو رية بأن أبا هريرة كذب على رسول الله إرضاء للأمويين ونكاية بالعلويين[4]، فأبو هريرة من كل هذا براء، ولكنهما أوردا أخباراً ضعيفة وموضوعة لا أصل لها[5]، وكل ما كان في هذا الشأن وما جاءنا من هذه الأخبار الباطلة إنما كان عن طريق أهل الأهواء الداعين إلى أهوائهم، المتعصبين لمذاهبهم، فتجرؤوا على الحق، ولم يعرفوا للصحبة حرمتها، فتكلموا في خيار الصحابة واتهموا بعضهم بالضلال والفسق، وقذفوا بعضهم بالكفر، وافتروا على أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم[6].

ولقد كشف أهل الحديث عن هؤلاء الكذبة، وكشف الله بهم أمر هذه الفرق، وأماط اللثام عن وجوه المتسترين وراءها، فكان أصحاب الحديث هم جنود الله عز وجل، بينوا حقيقة هؤلاء، وأظهروا نواياهم وميولهم، فما من حديث أو خبر يطعن في صحابي أو يشكك في عقيدة، أو يخالف مبادئ الدين الحنيف إلا بين جهابذة هذا الفن يد صانعه، وكشفوا عن علته، فادعاء هؤلاء مردود حتى يثبت زعمهم بحجة صحيحة مقبولة، وكيف نتصور معاوية

(1) أقباس من مناقب أبي هريرة، عبد المنعم العزي، ص: 127 إلى 149.
(2) البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، ص: 128.
(3) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: 203.
(4) أبو هريرة عبد الحسين، ص: 35، أضواء على السنة، ص: 190.
(5) السنة قبل التدوين، ص: 441.
(6) العواصم من القواصم، ص: 182 - 183، السنة قبل التدوين، ص: 443.

يحرض الصحابة على وضع الحديث كذباً وبهتاناً وزوراً، ليطعنوا في أمير المؤمنين علي ﷺ [1]، وقد شهد علماء الأمة من الصحابة والتابعين على عدالة معاوية، وقد بين مواقفه من أمير المؤمنين علي ﷺ، ولم يذكر في مصدر موثوق به ما يدل على أن علياً ﷺ كذّب أبا هريرة أو نهاه عن الحديث، ولكن بعض أعداء أبي هريرة يستشهدون برواية مكذوبة عن أبي جعفر الإسكافي، وهي أن علياً لما بلغه أبي هريرة قال: ألا إن أكذب الناس - أو قال: أكذب الأحياء على رسول الله - أبو هريرة الدوسي[2]. فهذه رواية مردودة لا نقبلها عن الإسكافي، لأنه شيعي ومعتزلي ناصب أهل الحديث العداء[3]، وقد رد ابن قتيبة على جميع ما ألصقوه بالإمام علي طعناً في أبي هريرة[4].

جـ - كثرة حديثه:

أخذ النظام المعتزلي على أبي هريرة كثرة حديثه وتابعه بعض المعتزلة قديماً ومنهم بشر المريسي، وأبو القاسم البلخي، وقد ردّ ابن قتيبة على النظام في كتابه (تأويل مختلف الحديث) ولقيت هذه الشبهة صدى في نفوس بعض المتأخرين كعبد الحسين شرف الدين الشيعي الذي سود صفحات كثيرة من كتابه (أبو هريرة)[5]، يشك في مروياته ويستكثرها، ويوهم القارىء أن ما رواه أبو هريرة مما رواه الصحابة الذين اشتغلوا بأمور الدولة وسياستها، ويثير هذه الشبهة نفسها أبو رية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية)[6]، ويستشهد هؤلاء جميعاً بأخبار ضعيفة أو موضوعة أحياناً، وبتأويلات وموازنات باطلة أحياناً أخرى، وتلتقي أهواء هؤلاء بأهواء بعض المستشرقين أمثال «جولد تسيهر» الذي استكثر أيضاً مرويات أبي هريرة[7]، وخلاصة أقوالهم، أن أبا هريرة تأخر إسلامه، وروى عن رسول الله ﷺ (5374) حديثاً، وهي أكثر كثيراً مما رواه الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة الذين سبقوه إلى الإسلام[8]، ومن الخطأ الفاحش أن يقارن الخلفاء الراشدون وأبو هريرة في مجال الحفظ وكثرة الرواية لأسباب عديدة منها:

- **صحيح أن الخلفاء الراشدين الأربعة ﷺ سبقوا أبا هريرة في صحبتهم وإسلامهم،**

(1) السنة قبل التدوين، ص: 444.
(2) شرح نهج البلاغة (1/ 468).
(3) السنة قبل التدوين، ص: 443.
(4) تأويل مختلف الحديث، ص: 27، 51 وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص: 460.
(5) أبو هريرة، ص: 45 وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص: 446.
(6) أضواء على السنة المحمدية، ص: 160 وما بعدها.
(7) دائر المعارف الإسلامية - مادة حديث، نقلاً عن، السنة قبل التدوين، ص: 447.
(8) السنة قبل التدوين، ص: 447.

ولم يرو عنهم مثل ما روي عنه، إلا أن هؤلاء اهتموا بأمور الدولة، وسياسة الحكم، وأنفذوا العلماء والقراء والقضاة إلى البلدان فأدوا الأمانة التي حملوها، كما أدى هؤلاء الأمانة في توجيه شؤون الأمة، فكما لا نلوم خالد بن الوليد على قلة حديثه عن الرسول ﷺ لانشغاله بالفتوحات، لا نلوم أبا هريرة على كثرة حديثه لانشغاله بالعلم[1].

- **انصراف أبي هريرة إلى العلم والتعليم**، واحتياج الناس إليه لامتداد عمره، يجعل الموازنة بينه وبين غيره من الصحابة السابقين أو الخلفاء الراشدين غير صحيحة، بل هي خطأ كبير[2]، وكون أبي هريرة ﷺ أكثر رواية من السيدة عائشة ﷺ لأنها كانت تفتي الناس في دارها، وأما أبو هريرة، فقد اتخذ حلقة له في المسجد النبوي، كما كان أكثر احتكاكاً بالناس من السيدة أم المؤمنين عائشة بصفته رجلاً، كثير الغدو والرواح، وأضيف إلى هذا أن السيدة عائشة كان جل همها موجهاً نحو نساء المؤمنين، وكان يتعذر دخول كل إنسان عليها[3].

إن نظرة مجردة عن الهوى تدرك أن ما روي عن أبي هريرة من الأحاديث لا يثير العجب والدهشة، ولا يحتاج إلى هذا الشغب الذي اصطنعه أهل الأهواء وأعداء السنن، وإن ما رواه عن رسول الله ﷺ، سواء أسمعه منه أم من الصحابة لا يشك فيه لقصر صحبته، بل إن صحبته تحتمل أكثر من هذا، لأنها كانت في أعظم سنوات دولة الإسلام دعوة ونشاطاً، وتعليماً وتوجيهاً في عهد رسول الله ﷺ[4]

- **كثرة ملازمته للنبي ﷺ**: فقد صحب النبي ﷺ أربع سنين، فعن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله، ما حدثت حديثاً، ثم يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: 159، 160]. إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون[5].

- **دعاء النبي ﷺ له في الحفظ**: فعن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه، قال: «ابسط رداءك». فبسطه، قال: فغرف بيديه ثم قال: «ضمه». فضممته فما نسيت شيئاً بعده[6].

---

(1) السنة قبل التدوين، ص: 450.
(2) المصدر نفسه، ص: 451.
(3) المصدر نفسه، ص: 451.
(4) المصدر نفسه، ص: 452.
(5) البخاري رقم (118) مسلم رقم (159).
(6) البخاري رقم (119) مسلم (رقم 160).

- **كثرة تلامذته والناقلين عنه**: فكان عدد تلامذته قريباً من ثمانمائة[1].

- **تأخر وفاته**، فقد قيل: 58هـ وقيل 59هـ. ثم إن هذه الأحاديث المنقولة عنه تنقسم إلى ما يلي:

- ما كان ضعيف السند لا يصح عن أبي هريرة.
- ما كان مكرراً.
- ما كان له أكثر من إسناد.
- ما رواه عن أكابر الصحابة كالعشرة وأمهات المؤمنين وغيرهم.
- ما كان موقوفاً عليه من كلامه[2].

وقد اتفق البخاري ومسلم على إخراج ثلاثمائة وستة وعشرين حديثاً، وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين، وانفرد مسلم بثمانية وتسعين.

ثم إن جُلَّ الأحاديث التي رواها أبو هريرة لم ينفرد بروايتها عن رسول الله ﷺ بل شاركه في روايتها غيره من الصحابة[3].

وأما اعتراض الشيعة على مروياته، فإن جابر بن يزيد الجعفي روى عن محمد الباقر ﷺ سبعين ألف حديث، وعن إمام آخر مائة وأربعين ألف حديث[4]، وروى أبان بن تغلب عن جعفر الصادق ﷺ ثلاثين ألف حديث[5]، وروى محمد بن مسلم عن الباقر ثلاثين ألف حديث، وعن الصادق ستة عشر ألف حديث[6]. وهذا يبين تناقضهم.

وقد شهد لأبي هريرة الصحابة والتابعون وجهابذة العلم بقوة الحفظ وحضور الذاكرة[7]. فقد قال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه[8]، وقال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره[9]. وقال الذهبي: . . سيد الحفاظ الأثبات[10]،

(1) حقبة من التاريخ، ص: 223، سير أعلام النبلاء (2 / 579).
(2) حقبة من التاريخ، ص: 223.
(3) المصدر نفسه.
(4) خاتمة وسائل الشيعة، ص: 151.
(5) رجال النجاشي، ص: 9.
(6) مشيخة الصدوق، ص: 6.
(7) موقف المدرسة العقلية من السيرة النبوية الأمين الصادق (2/ 74).
(8) سير أعلام النبلاء (2/ 603 - 604) رجاله ثقات إسناده صحيح.
(9) المصدر نفسه (2/ 599).
(10) المصدر نفسه (2/ 578).

وقال أيضاً: وأبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ وأدائه بحروفه[1].

وقد دافع الكثير من العلماء عن أبي هريرة وردوا الشبهات التي ألصقت به، ومن الكتب المعاصرة التي نسفت الأباطيل التي اتهم به أبو هريرة: (العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب)[2]، و(موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية)[3].

د - بكاء أبي هريرة في مرض موته ووصية معاوية بورثته:

لما حضر أبو هريرة الموت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي دنياكم هذه، ولكن أبكي على بعد سفري وقلَّة زادي، وإني أصبحت في صعود مهبط على جنة ونار، لا أدري إلى أيُّهما يُؤخذ بي[4]. وجاء في رواية: وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة وفي القوم ابن عمر وأبو سعيد الخدري وخلق، وكانت وفاته في داره بالعقيق، فحمل إلى المدينة، فصُلِّيَ عليه ثم دفن بالبقيع - رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه - وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبي هريرة، وكتب إليه معاوية: أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، واعمل إليهم معروفاً، فإنه كان ممن نصر عثمان، وكان معه في الدار[5].

● هل أراد معاوية أن ينقل منبر رسول الله من المدينة إلى الشام؟

ذكر الطبري في تاريخه في أحاديث عام 50هـ بأن معاوية أمر بمنبر رسول الله ﷺ، أن يحمل إلى الشام فحُرِّك فكسفت الشمس حتى رُئيت النجوم بادية يومئذ فأعظم الناس ذلك، فقال: لم أرد حمله، إنما خفت أن يكون قد أرِض[6]، فنظرت إليه، ثم كساه يومئذٍ[7]، وجاء في رواية أخرى: قال معاوية: إني رأيت أن منبر رسول الله وعصاه[8]، لا يتركان بالمدينة، وفيها قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلما قدم طلب العصا وهي عند سعد القرظي، فجاء أبو هريرة وجابر بن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عَزَّوَجَلَّ أن تفعل هذا، فإن

---

(1) المصدر نفسه (2/ 619).
(2) العصرانيون، محمد حامد الناصر، ص: 115.
(3) موقف المدرسة العقلية (2/ 74) الأمين الصادق الأمين.
(4) البداية والنهاية (11/ 384).
(5) المصدر نفسه (11/ 389).
(6) أي: أصابته الأرضة وهي دويبة تأكل الخشب القاموس المحيط، ص: 820.
(7) تاريخ الطبري (6/ 155).
(8) كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخطب توكأ على عصا.

هذا لا يصح، تُخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتخرج عصاه من المدينة. فترك، ذلك معاوية، ولكن زاد في المنبر ستَّ درجات، واعتذر إلى الناس[1].

تحدثت الروايات السابقة عن القضايا التالية:

1 - عزم معاوية ﷺ على نقل منبر رسول الله، وعصاه إلى الشام، فقد ذكره الزبير بن بكار[2]، واليعقوبي وابن الجوزي[3]، دون أن يشيروا إلى خبر العصا، أما ابن الأثير[4]، وابن كثير[5]، فقد أورد خبر المنبر والعصا، هذا وقال الدكتور خالد الغيث: ولم أقف على رواية صحيحة تؤكد مزاعم الواقدي، هذا فضلاً عن أن دين معاوية، وعدالته، وصحبته لرسول الله ﷺ تمنعه من حمل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام وهو يعلم قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[6].

هذا وقد أورد عبد الرزاق[7]، خبر قدوم معاوية ﷺ المدينة وزيادته درجات المنبر دون الإشارة إلى إرادة معاوية نقل المنبر إلى الشام، أو أخذ العصا، وزيادة معاوية ﷺ للمنبر وكسوته تعد من مناقب معاوية التي حاول بعض الأخباريين طمسها وتشويهها[8].

2 - خبر ربط كسوف الشمس بتحريك المنبر فقد ذكره عبد الرزاق والزبير بن بكار[9]، وابن الجوزي[10]، وابن الأثير[11]، وابن كثير[12]، بينما ذهب اليعقوبي[13] الشيعي إلى حدوث زلزلة عند تحريك المنبر، وهذا الخبر لم يرد بإسناد صحيح، هذا فضلاً عن أن كسوف الشمس على افتراض حدوثه، فإنه لم يكن نتيجة لتحريك المنبر ليس إلا، وقد حصل ما يشبه ذلك في عهد الرسول ﷺ، حيث أخرج البخاري من طريق المغيرة بن شعبة ﷺ قال: كسفت

(1) البداية والنهاية (11/ 214) تاريخ الطبري (6/ 155).
(2) فتح الباري (2/ 463) مرويات خلافة معاوية، ص: 388.
(3) المنتظم (5/ 227).
(4) الكامل في التاريخ (2/ 482).
(5) البداية والنهاية (11/ 214).
(6) البخاري، صحيح البخاري مع الفتح (4/ 119).
(7) المصنف (3/ 183).
(8) مرويات خلافات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 389.
(9) فتح الباري (2/ 464).
(10) المنتظم (5/ 228).
(11) الكامل (2/ 482).
(12) البداية والنهاية (11/ 214).
(13) البخاري: صحيح البخاري مع الفتح(2/ 612).

الشمس على عهد رسول الله ﷺ، يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله**»، وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده**»[1].

3 - **اتهام معاوية ﷺ ببغض أهل المدينة** (الأنصار) لكونهم قتلة عثمان بن عفان ﷺ، هذا الخبر أورده ابن الأثير[2]، وهو خبر ضعيف الإسناد[3].

وقد بينت موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وكيف أن كعب بن مالك الأنصاري حثَّ الأنصار على نصرة عثمان ﷺ، وقال لهم: يا معشر الأنصار! كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنّا أنصار الله مرتين[4]. فرفض القتال، وقال: لا حاجة لي في ذلك، كفُّوا[5].

وأما زعمهم أن معاوية يبغض الأنصار ﷺ لكونهم قتلة عثمان ﷺ، فمردود بما ورد من حقيقة موقف الأنصار من عثمان ﷺ، كما أن تقريب معاوية للأنصار وتوليته إياهم في مناصب هامة وحساسة يرد هذه الفرية، ومن الشواهد على ذلك:

1 - توليته فضالة بن عبيد الأنصاري ﷺ قضاء دمشق[6]، وتوليته إياه منصب أمير البحرية الإسلامية في مصر[7].

2 - تعيينه النعمان بن بشير الأنصاري ﷺ أميراً على الكوفة[8].

3 - تعيينه مسلمة بن مخلد الأنصاري ﷺ أميراً على مصر والمغرب معاً[9].

4 - تعيينه رويفع بن ثابت الأنصاري ﷺ أميراً على طرابلس[10].

---

(1) البخاري، صحيح البخاري مع الفتح (2/ 612).
(2) الكامل (2/ 482).
(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 390.
(4) فتنة مقتل عثمان، ص: 200، إسناده حسن لغيره.
(5) مرويات خلافة معاوية، ص: 391، فتنة مقتل عثمان (1/ 162).
(6) الاستيعاب (3/ 1262)، الإصابة (5/ 371).
(7) رياض النفوس، للمالكي (1/ 80).
(8) مرويات خلافة معاوية، ص: 391، نقلاً عن تاريخ الطبري.
(9) المصدر نفسه، ص: 392.
(10) الاستيعاب (2/ 504).

رابعاً: مكة

1 - ولاية خالد بن العاص بن هشام ﷺ:

ولى معاوية في سنة 42هـ مكة خالد بن العاص بن هشام[1]، وبعد أن سمى الطبري من وُلِّيَ مكة في سنة 42هـ وسنة 43هـ نجده بعد ذلك يسكت عن تسمية عمال مكة[2]، ويكتفي بعبارة: وكانت الولاة والعمال على الأمصار في هذه السنة من تقدم ذكره قبل[3]، أو عبارة نحوها، وقد تابعه كل من ابن الجوزي[4]، وابن الأثير[5].

خامساً: ولاة الطائف:

لم يذكر الطبري أسماء ولاة الطائف، لكن وردت عنده رواية تفيد تولي بعض بني حرب الطائف، وفيما يلي نص هذه الرواية: وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل: هو في أبي جاد[6]، فإذا ولاه مكة قيل: هو في القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق[7]. أما بالنسبة لمن ولي الطائف من بني حرب فإن رواية الطبري تسكت عن تسميتهم، لكن ورد عند البلاذري ما يفيد تولية عنبسة ابن أبي سفيان بن حرب وعتبة بن أبي سفيان بن حرب على الطائف[8].

سادساً: مصر:

1 - ولاية عمرو بن العاص ﷺ:

ولى معاوية عمرو بن العاص على مصر عام 41هـ[9]. وهذا من باب وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، فعمرو فاتح مصر ووالياها على عهد عمر وعثمان رضوان الله عليهم، وهو أقرب الناس لتولي هذه الولاية الهامة[10]، وقد تكاثرت الروايات الموضوعة

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 87).
(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 278.
(3) مرويات خلافة معاوية، ص: 278، نقلاً عن تاريخ الطبري.
(4) المنتظم (5/ 193-206).
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص: 278.
(6) في أبي جاد: في أول الأمر.
(7) تاريخ الطبري، مرويات خلافات معاوية، ص: 279.
(8) أنساب الأشراف (4/ 39) مرويات خلافة معاوية، ص: 279.
(9) مرويات خلافة معاوية 281، 282.
(10) مرويات خلافة معاوية، ص: 282.

والضعيفة في العلاقة بين عمرو ومعاوية ﷺ واشتمل على مغامز خفية ومعلنة على الرجلين، وتشير بعضها إلى أن معاوية قد أعطى ولاية مصر لعمرو بن العاص مكافأة له نظير وقوفه إلى جانبه أثناء الفتنة التي أعقبت استشهاد عثمان بن عفان ﷺ ، وهذا الأمر قد بينته في كتابي عن علي بن أبي طالب ﷺ .

إن وقوف عمرو بن العاص مع معاوية في المطالبة بالتعجيل بتطبيق القصاص على قتلة عثمان لم يكن تضامناً من عمرو على شخص معاوية، بل كان نابعاً من اجتهاد عمرو الشخصي في هذه المسألة، حيث رأى ﷺ الأخذ بالقَودَ من قتلة عثمان على الفور، فكان هذا الاجتهاد من عمرو بن العاص متطابقاً مع اجتهاد معاوية في القضية نفسها[1] . وقد كانت ولاية عمرو بن العاص على مصر ذات صلاحيات واسعة بسبب ما كان يتمتع به من مقدرة إدارية فائقة، وقابليات سياسية وعسكرية متميزة، فقد واصل فتوحات الشمال الأفريقي ونظم أمر العطاء والإعمار والبناء والزراعة والري بمصر[2]وقد بقي عمرو في ولاية مصر حتى وفاته عام43هـ.

● وصيته عند موته:

يروي ابن شماسة المهري وصية عمرو بن العاص لحظة احتضاره فيقول: حضرنا عمرو ابن العاص وهو في سياقة الموت[3]، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث[4]: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، لو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن اشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله[5]، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه، ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة[6].

---

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 282.
(2) مصر في العصر الأموي، عدنان أحمد الجنالبي، ص: 50،49.
(3) في سياقة الموت : أي : حال حضوره.
(4) أي : على ثلاث أحوال.
(5) أي: يسقطه ويمحو أثره، وصايا وعظات قيلت آخر الحياة للحموي، ص: 70.
(6) مسلم (رقم 121).

وجاء في رواية: ثم تلبث بعد ذلك بالسلطان وأشياء، فلا أدري عليّ أم لي، فإذا مت فلا تبكينَّ عليّ باكية، ولا تتبعني مادحاً ولا ناراً، وشُدُّوا عليّ إزاري فإني مخاصم، وشُنُّوا عليّ التراب شَنًّا فإن جنبي الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلُنَّ في قبري خشبة ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جذور وتقطيعها، أستأنس بكم[1].

وقد روى مسلم هذا الحديث في صحيحه: كي أستأنس بكم لأنظر ماذا أراجع به رسل ربي عز وجل[2]، وفي رواية: أنه بعد هذا حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك. وفي رواية: أنه وضع يده على موضع الغُلِّ من عنقه، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم لا قويٌّ فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت، فلم يزل يُردّدها حتى مات رضي الله عنه[3].

2 - ولاية عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه:

كانت وفاة عمرو ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين، واستخلف ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها[4]وبعد وصول خبر وفاة عمرو بن العاص إلى معاوية قام بتعيين أخيه عتبة على مصر، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وأربعين[5]. أي أن ولاية عبد الله بن عمرو على مصر لم تزد على شهرين، وهي الفترة التي استغرقها وصول خبر وفاة عمرو إلى معاوية، واتخاذه لقرار تعيين الوالي الجديد[6].

وقد وصف الذهبي عبد الله بن عمرو بقوله: الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله وابن صاحبه، أبو محمد وقيل: أبو عبد الرحمن. . . وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة أو نحوها، وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا، ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم، غيّره النبي صلى الله عليه وسلم بعبد الله[7].

وقد ورث عبد الله من أبيه قناطير مقنطرة من الذهب، فكان من ملوك الصحابة[8].

3 - ولاية عتبة بن أبي سفيان:

ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطائف وصدقاتها، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وكان فصيحاً خطيباً، يقال: إنه لم يكن في بني أمية أخطب منه. خطب أهل مصر يوماً وهو والٍ عليها فقال: يا أهل مصر خفّ على ألستكم مدح

(1) البداية والنهاية (11/ 161).
(2) مسلم (121).
(3) البداية والنهاية (11/ 161).
(4) ولاة مصر للكندي، ص: 57.
(5) المصدر نفسه، ص: 57.
(6) مرويات خلافة معاوية، ص: 286.
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 80).
(8) المصدر نفسه (3/ 91).

الحق ولا تأتونه، وذم الباطل وأنتم تفعلونه، كالحمار يحمل أسفاراً يثقلُه حملها، ولا ينفعه علمها، وإني لا أُداوي داءكم إلّا بالسيف، ولا أُبلغ السيف ما كفاني السوط، وأبلغ السوط ما صلحتم بالدّرة، وأبطىء عن الأولى إن لم تسرعوا إلى الآخرة، فالزموا ما ألزمكم الله لنا تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وهذا يوم ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب[1].

وجاء في رواية: . . . لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل، فناداه المصريون من جنبات المسجد: سمعاً، سمعاً، فناداهم: عدلاً عدلاً[2]، وقد قام عقبة ببناء دار الإمارة بعد أن خرج مرابطاً في الإسكندرية[3].

وكان عتبة قد اتخذ لأولاده مؤدباً، يعلمهم ويربيهم، فقد عهد لعبد الصمد بن عبد الأعلى ليكون مؤدباً لولده[4]، ووجه مؤدب أولاده بتتبع أساليب التشويق وتحبيب دراسة كتاب الله إلى نفوسهم، فقال له: علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه[5]، وجاء في رواية: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روِّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء، وجنبهم محادثة النساء، وتهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكل على عذري، فإني قد اتكلت على كفايتك، وزد في تأديبهم أزدك في برِّي إن شاء الله[6].

يتضح من هذه الوصية حرص الولاة الأمويين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم والحديث والشعر وغيرها إضافة إلى التأكيد على الجانب التربوي وتزويدهم بالآداب والأخلاق الحسنة، كما أنهم يمنحون المؤدبين صلاحيات واسعة، ويكرمونهم[7].

4 – ولاية عقبة بن عامر الجهني ﷺ : 45هـ – 47هـ

أغفل الطبري ذكر ولاية عقبة بن عامر الجهني على مصر، وتابعه ابن الجوزي، وابن

(1) الاستيعاب رقم 1923.
(2) النجوم الزاهرة (1/ 124)، مصر في العصر الأموي 82.
(3) مصر في العصر الأموي، ص: 82، النجوم الزاهرة (1/ 34).
(4) مكانة المعلم في التراث العربي للزبيدي، ص: 106.
(5) البيان والتبيين للجاحظ (2/ 73).
(6) عيون الأخبار (2/ 5) (2/ 66). التبيان والتبيين (2/ 73، 74).
(7) التعليم في العصر الأموي، ص: 66.

الأثير وابن كثير، مع أن ولايته على مصر قد أثبتتها المصادر التاريخية المختصة بالديار المصرية[1]، وهي مقدمة على غيرها في هذا المقام[2]، كما أثبتها له ابن عبد البر[3]، وابن حجر[4]، وكان عالماً مقرئاً، فصيحاً فقيهاً فرضياً، شاعراً كبير الشأن، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن فقال له عمر بن الخطاب: اعرض عليّ، فقرأ، فبكى عمر، وكانت له صحبة، وبايع رسول الله على الهجرة وأقام معه، وكان من أهل الصفة وكان من الرماة المذكورين، مات سنة 58هـ[5]

5 - ولاية مسلمة بن مُخلّد الأنصاري 47هـ -62هـ:

هو مسلمة بن مُخلّد الأنصاري الخزرجي، الأمير، نائب مصر لمعاوية، يكنى أبا معن وقيل: أبو سعيد، وقيل: أبو معاوية، له صحبة ولا صحبة لأبيه[6]. قال مجاهد: صليت خلف مسلمة بن مُخلّد، فقرأ سورة البقرة، فما ترك واواً ولا ألفاً[7]. قال الليث: عزل عقبة بن عامر عن مصر في سنة سبع وأربعين فوليها مسلمة حتى مات زمن يزيد[8]. وقد توفي سنة 62هـ في ذي القعدة بالإسكندرية[9]، وكانت له جهود في الفتوحات بالشمال الأفريقي يأتي ذكرها بإذن الله تعالى، وكان المغرب كله تابعاً له[10].

هذه هي أهم الولايات والولاة في عهد معاوية ﷺ، ويمكن تلخيص صلاحيات الولاة بالولايات على الإجمال، كتعيين الموظفين، وتشكيل مجالس شورى، إنشاء الجيوش وتجهيزها بالنسبة للولايات التي قريبة من حركة الفتح الإسلامي، كمصر والبصرة، والحفاظ على الأمن الداخلي، والإشراف على الجهاز القضائي بالولاية، والنفقات المالية، ومراقبة الأوضاع بالولاية وغير ذلك من الصلاحيات.

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 287.
(2) كولاة مصر، والنجوم الزاهرة مرويات خلافة معاوية، ص: 287.
(3) الاستيعاب، رقم الترجمة (1898).
(4) الإصابة (4/ 521).
(5) سير أعلام النبلاء (2/ 468).
(6) المصدر نفسه، (3/ 424).
(7) المصدر نفسه (3/ 425).
(8) المصدر نفسه (3/ 425).
(9) المصدر نفسه (3/ 426).
(10) مصر في العصر الأموي، ص: 83.